www.kotobarabia.com

أعمال الشاعر نزار قباني
بين قوسيْ قزح

الجزء الأول

www.kotobarabia.com

دراسة تحليلية
بقلم

محمد الزينو السلوم

أعمال

الشاعر نزار قباني

بين قوسيْ قُزح

دراسة الأعمال الشعرية الكاملة

وما قاله بعض النقاد عن نزار وأشعاره..!

دراسة تحليلية

بقلم

محمد الزينو السلوم

طبقا لقوانين الملكية الفكرية

جميع حقوق النشر و التوزيع الالكتروني لهذا المصنف محفوظة لكتب عربية. يحظر نقل أو إعادة نسخ أو إعادة بيع اى جزء من هذا المصنف و بثه الكترونيا (عبر الانترنت أو للمكتبات الالكترونية أو الأقراص المدمجة أو اى وسيلة أخرى) دون الحصول على إذن كتابي من كتب عربية. حقوق الطبع الورقى محفوظة للمؤلف أو ناشره طبقا للتعاقدات السارية.

فهرس

دراسة تحليلية ٢
فهرس ٣
المجلّد الأول.. ٥
(الجزء ١).. ٥
الإهداء ٧
الأوسمة والشهادات العربية والعالمية ١٦
التي حصل عليها في حياته * ١٦
القصائد المغنّاة للشاعر نـزار قباني * ١٨
البطاقة الشخصية..! ١٩
إضاءة على إضاءة..! ٢٣
مدخل إلى الدراسة..! ٣٧
نزار قباني رحيل قارة شعرية.................................. ٣٨
مما قالته الشاعرة الكويتية...................................... ٣٩
* مما قاله الشاعر محمود درويش.............................. ٤٠
*مما قاله الشاعر سميح القاسم.................................. ٤١
*مما قاله الدكتور غازي القصيبي.............................. ٤٢
قالت لي السمراء.. ٤٣
ورقة إلى القارئ..! ٤٩
قصيدة " الموعد الأول " ٥٤
اكتبي لي..!.. ٥٦
أنا محرومة..! ٥٩

زيتيّة العينين..! ٦١
فـم..! ٦٤
أحبـك..! ٦٧
نـهـداكِ..! ٧٠
نزار قبانـي ٧٦
يا نزار..! ٩٣

المجلّد الأول

(الجزء ١)

(١) قالت لي السمراء (١٩٤٤)

(٢) طفولة نهـد (١٩٤٨)

(٣) سـامبـا (١٩٤٩)

(٤) أنـتِ لـي.. (١٩٥٠)

(٥) قصـائـد (١٩٥٦)

(٦) حبيبتي..! (١٩٦١)

(٧) الرسم بالكلمات (١٩٦٦)

الجزء الأول

(١)

قالت لي السمراء

(١٩٤٤)

الإهداء

إلى محبي الشاعر نزار قباني، وأشعاره..

من أدباء، ونقاد، ودارسين، وقراء..

إلى كل من يؤمن بحرية الكلمة..

إلى حبيبتي التي دفعتني لهذا العمل الكبير، الذي أعتبر نفسي صغيراً أمامه..

إلى التي زرعت في الأمل قبل فـوات الأوان بقليـل، وجعلتني أقف كالسنديانة في وجه الأيام..

محمد

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمةً طيبةً كشجرةٍ طيبةٍ
أصلها ثابتٌ وفرعها في السماء *﴾

صدق الله العظيم

بسم الله الرحمن الرحيم

ما أجمل أن يكتب الإنسان قصة حياته بيـده، فكيـف إذا كتبها المبدع، سواء أكان فناناً أم أديباً، ولقد فعلهـا الشـاعر الراحل نـزار قباني، في " قصتي مع الشعر " عام ١٩٧٣م قبل وفاته بربع قرن، وهو كما نعلـم مـن مواليـد دمشـق ١٩٢٣م.. لقد كتب قصة حياته وقال كلّ ما يريد قوله، رسم وجهه بريشته، بألوانه، قبل أن يقصه النقاد، ويفصلوه علـى هواهم، أو يخترعوه من جديد، كما فعلوا بعديد من الفنـانين والأدباء وغيرهم من قبل.(من أقواله).. ومع ذلك فلـم يـنج الشاعر من مباضع الناقدين الذين أدخلوه غرف العمليـات، واستلموا جسده تشريحاً، على الرغم من كل ما قالـه عـن نفسه، لأن الريـاح كثيـراً مـا تجـري بمـا لا تشـتهي السفن..وأعترف لكم أنني سأكون أحد المشـرحين لجسـده بمبضعي الخاص، وفي غرفة العمليات الخاصة، وأتمنى من كل قلبي أن أستخدم المبضع برفق في التشريح،، لأقف على تجربة الشاعر نـزار قبـاني منـذ البدايـة، إلـى النهايـة

(بدءاً من أعماله الكاملة، وحتـى آخـر مجموعـة شـعرية أصدرها قبل وفاته عام ١٩٩٨م) مستفيداً من محاولات النقاد والدارسين الذين سبقوني، وبأسلوب جديد، علـى أن تكـون دراستي تاريخية، متسلسلة، ومتنوعة، وشاملة، ثم أُعرج في النهاية على ما وصلت إليه تجربته الشعرية خـلال نصـف قرن تقريباً، فيما يتعلق بفضاءاته الشعرية من حيث الشـكل والمضمون، والله أسأل أن يلهمني الصواب فيما أذهب إليه، والله يشهد أنني سأضع يدي على قلبي وضميري في كل مـا أقول بعيداً عن المجاملات، والتجريح، ومن خلال ما أتبينـه في رحلته الشعرية الطويلة، وأرجـو الله أن يأخـذ بيـدي، ويعينني على ما أنا فيه.. ومع ذلك فلا بد من الاعتـراف أن كل ما يقوله النقاد والدارسون، مجرد رأي لا أكثر، يكشـف بعض الجوانب في تجربة الأديب، ويضيء بعض الزوايا في إبداعاته، وتبقى زوايا أخرى كثيرة بحاجـة إلـى الكشـف، والتمحيص، وقد لا تصل إليها مباضع النقاد أبـداً.. وتبقـى أبواب النقد مفتوحة وقابلة للحوار، والنقاش، وحتى الدراسة فقد تصيب، وقد تخطئ (وكما يقال: من اجتهد فأصاب، لـه أجران، ومن أخطأ فله أجر واحد)..

لقد كتب العديد من النقاد عن تجربـة الشـاعر نـزار قباني، وسيكتب فيها مستقبلاً، ولن يقف النقد عاجزاً أمام أي عمل إبداعي، لكنه يبقى في النهاية تحصيل حاصـل، أو رد فعل على فعل، فالعمل الإبداعي لا بد أن يولد ليـأتي بعـده النقد، ويبقى المبدع بمثابة الشمس التي ينظر إليها النقاد مـن بعيد، ولا يمكن أن يطالوها أبداً، أو يدخلوا عوالمها، وإنما قد يضيؤون جوانب منها.. وكما قال الأقدمون: (المعنـى فـي قلب الشاعر)، ويبقى النقد مجرد رأي لا أكثر..

وفي دراستي المتواضعة لتجربة الشاعر الكبير نـزار قباني منذ البداية إلى النهاية، مروراً بكل أعمالـه الشـعرية (الأعمال الشعرية الكاملة، بالإضافة إلـى مـا صـدر مـن مجموعات شعرية بعدها)، وانطلاقاً من اعترافاته بخط يـده في " قصتي مع الشعر)، وبعض الحوارات التـي أُجريـتْ معه، وبعض ما كتبه النقاد عن تجربته الشعرية، وكما قلـت استناداً إلى كل ذلك، سأحاول إعطاء انطباعـاتي أو رأيـي النقدي، ومن هذه المراجع، ما كُتب عنه في " رحيـل قـارة شعرية) عـن نـزار قبـاني (١٩٢٣- ١٩٩٨)، متابعـة وتحرير: عامر مبيض، ومحمد كرزون، إصـدار ١٩٩٨م،

والذي يتضمن أقوال بعض من كتبوا عن الشاعر بعد رحيله مباشرة.. بالإضافة لما يتوفر لي من مراجع أخرى، أتحـدث عنها في حينه.. وكذلك ما يقدمه لـي بعـض الأصـدقاء، والأخوة الأدباء، الذين أبدوا كل الرغبـة فـي مسـاعدتي.. وسأحاول جاهداً أن يكون هذا العمل محاولة جادة، لإضـاءة وكشف جوانب هامة في رحلة الشاعر " نـزار "، بحيث يجد فيها القارئ العادي، والدارس، المتعة، والفائدة، معاً، ولهـذا تجدني أُكثر من ذكر القصائد التـي اخترتهـا عـن قصـد باعتبارها مميزة في مجموعاته الشعرية، ويحبهـا القـراء، ويرددونها كثيراً.. وسأقوم بدوري في شرح وتحليل مبسط، ليسهل عليهم فهم ما غاب عنهم لعلّي بعملي هذا أصل إلـى الغاية المنشودة من وراء هذا العمل..

أما فيما يتعلّق بالمنهجية التي سأتّبعها في عملي هذا، فهي تقديم العمل بأجزاء ذات حجم صغير، لا تزيد عدد صفحات كل منها عن/١٥٠/ صفحة، وسأقوم بجمع كل عدة أجزاء في مجلّد خاص، متسلسل، حتى نهاية العمل..وسيتضـمن كـل مجلّد أو جزء من الدراسة، بعض ما قاله الشاعر عن نفسـه في " قصتي مع الشعر "، وأقوال أخرى له، بالإضـافة إلـى

بعض الحوارات التي أجريت معه، وما قاله بعـض النقـاد والدارسين عن شعره، وكذلك ما قيل في بعض الندوات التي أقيمت خصيصاً لتكريمه..

والله أسأل أن يمدني بالقوة، والتجمل بالصبر، للوصـول إلى الغاية المرجوة، في مثل هذا العمل الذي يحتاج إلى جهد دؤوب، متواصل، لأتمكن من تقديم الفائدة والمتعة معاً، والله من وراء القصد..

محمد

(صورة نزار وهو طفل)

(صورة نـ زار في شبابه)

(صورة والده توفيق قباني)

(صورة والدته)

الأوسمة والشهادات العربية والعالمية

التي حصل عليها في حياته *

- وسام الاستحقاق الثقافي الإسباني لعام ١٩٦٤ في مدريـد تقديراً لما فعله لمد الجسور الثقافية بين العرب وإسبانيا.
- جائزة جبران العالمية - سيدني - أستراليا.
- وسام الغار من النادي السـوري الأمريكـي فـي بلديـة واشنطن.
- ميدالية التقدير الثقافي البلجيكي.
- الجمعية الطبية العربية الأمريكية - لجنة الثقافة والتراث.
- جائزة سلطان بن علي العويس للإنجاز العلمي والثقافي.
- عضو ية الشرف في جمعية خريجي الجامعـة الأمريكيـة ببيروت، وحصل على درع الجمعية
    - من كتاب رحيل قارة شعرية.
    - ترجمات شعرية:
- إلى اللغة الإنكليزية انطلوجيا الشعر العربـي، للـدكتورة سلمى الخضراء الجيوسي، مؤسسة بروتا، الولايات المتحدة الأمريكية.

- إلى اللغة الإنكليزيـة THE OTHER POETRY, OF ENTERING THE SEA، EROTIC AND
- NIZAR QABBANI ON
- ترجمة: لينا جيوسي، وشريف الموسى وشعراء أمريكيين
- الناشر: INTERLINK BOOKS نيويورك.١٩٩
- إلى اللغة الفرنسية، FEMMES، ترجمة محمد عضـيمة دار ARFUYEN، باريس.
- إلـى اللغـة الإسـبانية AMOROSOSS POEMAS ARABS
- المترجم: بدور مارتينث منتابث.
- الناشر:المعهد الإسباني العربي للثقافة، مدريد ١٩٦٥م.
- إلى اللغة الإيطاليـة، ROMA ORIENTE POESIE، INSTITU TO PER L
- استقبله الرئيس حافظ الأسد في مكتبه عام ١٩٧٤م

القصائد المغنّاة للشاعر نـزار قباني *

القصيدة	اللحن	المطرب
أسألك الرحيلا	محمد عبد الوهاب	نجاة الصغيرة
أشهد أن لا امرأة	كاظم الساهر	كاظم الساهر
أصبح عندي الآن بندقية	محمد عبد الوهاب	أم كلثوم
ماذا أقول له	محمد عبد الوهاب	نجاة
أيظن	محمد عبد الوهاب	نجاة
إختاري	كاظم	كاظم الساهر
إغضب	حلمي بكر	أصالة
رسالة إلى امرأة مجهولة	محمد سلطان	فايزة أحمد
رسالة من تحت الماء	محمد الموجي	عبد الحليم
زيديني عشقا	كاظم الساهر	كاظم الساهر
قارئة الفنجان	محمد الموجي	عبد الحليم
كلمات	إحسان المنذر	ماجدة الرومي
لا تسألوني	الأخوان رحباني	فيروز
متى تعرف	محمد عبد الوهاب	نجاة الصغيرة
مدرسة الحب	كاظم الساهر	كاظم الساهر
مع الجريدة	جمال سلامة	ماجدة الرومي
من ينقذ الإنسان	كاظم الساهر	لطيفة وكاظم
بيروت	جمال سلامة	ماجدة الرومي

البطاقة الشخصية..!

الاسم: نزار توفيق قباني

تاريخ الميلاد: ٢١ مارس ١٩٢٣م

محل الميلاد:حي مئذنة الشحم (أحد أحياء دمشق القديمة).

الأسرة: أسرة نزار من الأسر الدمشقية العريقـة.. ومـن أبرز أفرادها أبو خليل القباني، مؤسس المسرح العربي فـي القرن الماضي، وهو جد نزار.. أما والـده توفيـق قبـاني، فتقول كتب التاريخ إنه كان من رجالات الثـورة السـورية الأماجد.. وكان من ميسوري الحال، ويعمل بالتجارة، ولـه محل معروف لبيع الحلويات، وكان نزار يساعده في عمليـة البيع عندما كان في صباه..

أنجب توفيق قباني ستة أبناء (نزار - رشيد - هدباء - معتز - صباح)، ووصال التي ماتت في ريعان شبابها.. أما صباح فهو ما زال حياً، وكان يشغل منصب مدير الإذاعـة السورية يوماً ما..

حصل نزار على البكالوريا من مدرسـة الكليـة العلمية الوطنية بدمشق.. ثم التحق بكلية الحقـوق بالجامعـة السورية، وتخرج فيها عام ١٩٤٥م.

عمل فور تخرجه بالسلك الدبلوماسي بوزارة الخارجيـة السورية، وتنقل في سفاراتها بين مدن عديدة، خاصة القاهرة ولندن وبيروت ومدريد.. وبعد ١٩٥٩ تم تعيينـه سـكرتيراً ثانياً للجمهورية العربية المتحدة في سفارتها بالصين.

وظل نزار متمسكاً بعمله الدبلوماسي حتى استقال منه عام ١٩٦٦.

طالب رجال الدين في سوريا بطرده من الخارجية وفصله عن العمل الدبلوماسي في منتصف الخمسينيات بعـد نشـر قصيدته الشهيرة " خبز وحشيش وقمر " التي أثـارت ضـده عاصفة شديدة وصلت إلى البرلمان.

كان يتقن اللغة الإنكليزية خاصة وأنه تعلّم تلك اللغة على أصولها عندما عمل سفيراً لسورية في لنـدن بـين عـامي ١٩٥٢-١٩٥٥.

تزوج مرتين.. الأولى من سورية، تدعى "زهرة " وأنجب منها (هدبا وتوفيق وزهراء)، وقد توفى توفيق بمرض القلب وعمره (١٧) سنة، وكان طالبـاً بكليـة الطـب _ جامعـة القاهرة، ورثاه نزار بقصيدة شهيرة عنوانها " الأمير الخرافي توفيق قباني "، وأوصى نزار بأن يدفن بجواره بعد موتـه..

وأما ابنته هدباء فهي متزوجة من طبيب في إحـدى بلـدان الخليج.

والمرة الثانية من بلقيس الراوي العراقية.. التي قتلت في انفجار السفارة العراقية ببيروت عام ١٩٨٢، وترك رحيلهـا أثراً نفسياً سيئاً عند نزار، ورثاها بقصيدة تحمل اسمها، حمل الوطن العربي كله مسئولية قتلها..

ولنزار من بلقيس ولد اسمه " عمر " وبنت اسمها زينب..

رفض نزار أن يتزوج.. وعاش سنوات حياته الأخيرة في شقة بالعاصمة الإنكليزية وحيداً..

بدأ نزار يكتب الشعر وعمره (١٦) سـنة، وأصـدر أول دواوينه " قالت لي السمراء " عام ١٩٤٤م، وكان طالباً بكلية الحقوق، وطبعه على نفقته الخاصة..

له عدد كبير من الدواوين، كتبها على مدار ما يزيد على نصف قرن، أهمها " طفولة نهد "، " الرسم بالكلمـات "، " " قصائد "، " سامبا "، أنتِ لي " وغيرها.

ولنزار عدد من الكتب النثرية أهمها: " قصتي مع الشعر" و " ما هو الشعر " و " ١٠٠رسالة حب ".

أسس دار نشر لأعماله في بيروت تحمل اسم " منشورات نزار قباني "، أعاد طبع العديد من دواوينه النثريـة وكتبـه عشرات المرات..

خاض معارك عنيفة مع الشاعر أدونيس في السبعينات..

بعد مقتل زوجته " بلقيس " ترك بيـروت، وتنقـل بـين باريس وجنيف حتى استقر به المقام في لندن التي قضى بها الأعوام الخمسة عشر الأخيرة من حياته..

وافته المنية في لندن عن عمر يناهز/٧٥/ عامـاً.. كـان منها/٥٠/عاماً في الفن والحب والغضب.. ودفن في دمشـق في موكب متواضع..

إضاءة على إضاءة..!

يقول الشاعر نـزار قباني في " قصتي مع الشعر ":

" أريد أن أكتب قصتي مع الشعر قبـل أن يكتبهـا أحـد غيري، أريد أن أرسم وجهي بيدي، إذ لا أحـد يسـتطيع أن يرسم وجهي أحسن مني.. أريد أن أكشف الستائر عن نفسي بنفسي، قبل أن يقصني النقاد ويفصلوني على هواهم، قبل أن يخترعوني من جديد..

ثلاثة أرباع الشعراء من فيرجيل، إلى شكسبير، إلى دانته، إلى المتنبي، من اختراع النقاد، أو من شغلهم، وتطريـزهم على الأقل..

ومن سوء حظ الشعراء القدامى، أنهم لم يكونوا يمتلكـون دفاتر مذكرات.

أما أنا فهذا هو دفتر مذكراتي، سجلت فيه كـل تفاصـيل رحلتي في غابات الشعر.

ولأني لا أريد أن أدخل غرفة العمليات، وأسلّم جسدي إلى مباضع الناقدين، قررت أن أظهر علـى المسـرح بشـكلي الطبيعي، ووجهي الطبيعي، وأتوجه إلى الجمهـور مباشـرة بغير وسطاء، وإعلانات حائط، وشباك تذاكر..

قررت أن أستغني عن خدمات التراجمة، والأدلّة، وأتجول في مدينة الشعر وحدي.. لأنني ما دمت أملك صـوتاً، فـلا حاجة بي لكل أشرطة التسجيل.

لن يكون هذا الكتاب تاريخاً بالمعنى الأكاديمي للتـاريخ، لأن التاريخ هو علم الحوادث الميتة، علـم الحـوادث التـي توقّفت عن العمل والانفعال.

ولن يكون هذا الكتاب بحثاً جيولوجياً لمـادة قصـائدي، وتربتها، وتشكيلها، فالقصيدة ليست إناء رومانياً أو فينيقياً من الفخّار تنتهي مهمتنا بقراءة الكتابة المحفورة عليه.القصـيدة ليست مادة منتهية، ليست زمناً ميتاً، إنها جسر ممدود علـى كل الأزمنة.إن (هاملت) لا ينتمي إلى العصر الإيليزابيتـي فقط.. ولكن ظلّه ينسحب على كل العصور.

و(حرية) بول إيلوار ليست حرية فرنسا وحدها، وإنما هي حرية الزنوج، والفيتناميين، والفلسطينيين، وكل من يزرعون الرماح في لحم جلاّديهم.

ودم (لوركا) المسفوح في بساتين غرناطة، لـيس دمـاً أندلسياً فقط، وإنما هو دم البشرية كلها.

والمتنبي، هذا الذي يقف وحده في كفّة الميـزان، ويقـف الزمان كلّه في الكفّة الأخرى.. يبدو لي رجلاً لا جنسية له.. ولا جواز سفر.. رجلاً يقفز على العصور كلّها..

إن (سيف الدولة) حادثٌ تاريخي. ولهذا فهو قابل للموت. أما المتنبي فهو (حادث شعري) خارج سلطة المـوت. وإذا كان سيف الدولة الحمداني لا يزال يتنفّس في ذاكرتنا حتـى اليوم، فلأن قصائد المتنبي فيه، هي التي جعلت تنفّسه ممكناً.

لن يكون هذا الكتاب درساً يلقى في مدرسـة ثانويـة، أو محاضرة في جامعة. فليس عندي دروس أعطيهـا لأحـد. ولكنني سأذهب مع القراء في نزهة قصـيرة إلـى شـاطئ البحر، ونقضي هناك عطلة نهاية الأسبوع.سنلبس الملابـس الصيفية الخفيفة، ونأخذ معنا الساندويتش وزجاجات الكـولا، والبيك - آب، وورق اللعب.سأحدثهم، وأنـا متمـدد علـى الرمل، عن أخباري وعن أسفاري، وعن أشعاري.. سأحدثهم عن بداياتي، وعن هواياتي، وعن صداقاتي.سـأحدثهم عـن أسرتي، وعن داري، وعن مدرستي، وعن الخلفية العائليـة والاجتماعية والثقافية التي تقف وراء شعري.

سأحدثهم عمن رموني بالورود، وعمن رموني بالحجارة، عمن عانقوني ومن صلبوني.

سأحدثهم عن القصائد التي صنعت مجدي، وعن القصائد التي حملت حتفي.

سأتحدث عن أصدقائي وعن أعدائي. عمن نثـروا فـي طريقي الزنابق.. ومن رفعوا في وجهي البنادق..

ومنذ الآن أقول: إنني أحبهم جميعـاً، حـاملي الزنـابق، وحاملي البنادق، وأمد لهم يدي مبتسماً وشاكراً.

فمن صوت القبلات عرفتُ حجم صوتي. ومن اصـطدام السكاكين بلحمي، عرفتُ أبعاد جسدي. من المـديح تعلّمـتُ كثيراً، ومن الشتيمة تعلّمتُ أكثر. تعلّمتُ أن كل كلمة يرسمها الشاعر على ورقة، هي لافتة في وجه العصر. وأن الكتابة هي إحداث خلخلة في نظام الأشياء وترتيبها. هي كسر قشرة الكون وتفتيتها..ولأن الشيء المكسور يدافع دائماً عن نفسـه بالصراخ والضوضاء، تصبح الكتابة - ولا سيما في البلدان المتخلفة التي تنام تحت لحاف الخرافة والتقاليد - قتالاً حقيقياً بالسلاح الأبيض.. بين مطرقـة الكاسـر وأجـزاء الشـيء المكسور.

من الدم السائل على وجهي وثيابي، تعلّمت أن الأدب ليس مخدة من ريش العصافير، ولا نزهة في ضوء القمر.

تعلّمت أن الأدب ليس زهرة نشكّها في عـروة سـترتنا، ولكنه صليب من المتاعب نحمله على أكتافنا..

الأدب جزية وضريبة ومشي مستمر علـى سـطح مـن الكبريت الساخن. الأدب ليس ابن السـهولة ولا هـو ابـن المصادفة.

أقول هذا لكلّ الذين يحسبون أن الموهبة ورقة يا نصـيب رابحة تخرج من كيس..

لا علاقة للأدب باليانصيب أو بالحظ.. والشـهرة ليسـت مائدة ربانية تهبط من السماء.

الحاوي، يستطيع أن يخرج من قبعته عشرات الصيصان والمناديل الملونة.. ولكنه يعجز عن إخراج دانتي واحـد، أو لوركا واحد، أو مایاكوفسكي واحد.. مِن رحِم الصبر يخرج الأدب. من رحِم الشغل والمعاناة والفجيعة.

هذا الكتاب سيكون نوعاً من السـيرة الذاتيـة. والسـيرة الذاتية تكاد تكون مجهولة في تاريخ أدبنا. الأديب العربي لا يحب السفر في داخل نفسه، ولا يحب استعمال المرايا..

حديث النفس للنفس في بلادنا مكـروه، نحـن لا نفهـم المونولوج الداخلي، ونعتبره نوعاً من الغرور والنرجسية.

الشاعر العربي يبقى صامتاً بانتظار حفلة تأبينية. فحفلات التأبين هي المناسبة الذهبية التي يجلس فيها النقّاد على قبـر الشاعر كي يلعبوا الورق..

وأنا طبعاً لن أسمح لأحد أن يلعب الورق علـى قبـري. لأنني لا أريد أن أشترك في اللعبة ...

أنا من أمة تتنفّس الشعر، وتتمشّط بـه، وترتديـه. كـل الأطفال عندنا يولدون وفي حليبهم دسم الشعر. وكل شـباب بلادي يكتبون رسائل حبهم الأولى شعراً.. وكلّ الأموات في وطني ينامون تحت رخامة عليها بيتان من الشعر.

أن يكون الإنسان شاعراً في الوطن العربي ليس معجزة، بل المعجزة أن لا يكون.

نحن محاصرون بالشعر، ومرغمون على كتابة القصائد، كما أرض مصر تحبل بقطنها، وأرض الشام بقمحها وأرض العراق بتمورها..

نحن محكومون بالشعر، كما هولندا محكومة بالبحر، وكما قمم الهملايا محكومة بالثلج..

لذلك لا أعتبر كتابتي عملاً مجانياً أو طارءاً، إنني عندما أكتب أخضع لكل قوانين الوراثة والسـلالة، وأنفّـذ أوامـر التاريخ.. وأتصرف وأنا أعبر الريجنت ستريت في لندن، أو الشانـزيليـزيه في باريس، كأي بدوي عاشق لا يملك مـن متاع الدنيا سوى عباءته وحنجرته..

هل من نعمة الله على العرب أنه دوزن حناجرهم دوزنـة شعرية.. أم أن الشعر لعنة أبدية تلاحقهم؟

هناك من يعتقد أن الشـعر هـو لعنـة العـرب، وأنـه (حشيشة) خدرتهم ، وفلجت أعصابهم، ومنعتهم من اللحـاق بقطار العصر.

أنا أرفض هذا المنطق، وأؤيد الجاحظ في قوله (إن الشعر هو فضيلة العرب)، والفضيلة هنا تعني أطهر ما لدى الإنسان وأشرف ما عنده.

الشعر هو الصورة والمثال للأمة، يتألّق بتألّقها، ويشـحب بشحوبها، وليس صحيحاً أننا متخلّفون لأن شعرنا دخل فـي مرحلة الكسوف يوم دخلنا نحن في مرحلة الكسوف

العصور العظيمة في التاريخ العربـي، أعطـت شـعراً عظيماً، وعصور الإنحطاط أعطت شـعراً منحطّـاً. وهـذه

المعادلة تنطبق أيضاً على الأدب اليوناني والروماني، حيث كان الشعر مرتبطاً بمساحة الدولة ومساحة طموحها.

فالخطيئة إذن ليست خطيئة الشعر، ولكنها خطيئة من يكتبونه. الجاهليون كتبوا شعراً يشبههم، والأمويون كتبوا شعراً يشبههم، والعباسيون كتبوا شعراً يشبههم، والخمر دائماً هي الخمر، ولكن الكؤوس هي التي تختلف.

ليست عندي نظرية لشرح الشعر، ولو كان عندي مثل هذه النظرية، لما كنت شاعراً، إن المعرفة بما نفعله تعطّل الفعل، تماماً كما يرتبك الراقص حين يتأمل حركة قدميه، الشعر رقص باللغة، والكلام عنه هو علم مراقبة الخطوات، وأنا بصراحة أحب أن أرقص.. ولا يعنيني أبداً أن أقيس خطواتي، لأن مجرد التفكير بما أفعل يفقدني توازني.

الشعر رقص باللغة، أُعيدها مرة ثانية، رقص بكلّ أجزاء النفس، وبكلّ خلجاتها الإرادية واللاإرادية، وبكل طبقاتها الظاهرة والمستترة، وبكلّ أحلامها الممكنة وغير الممكنة، وبكلّ نبوءاتها المعقولة واللامعقولة.

إن الذين يكتبون النثر، من قصة ورواية ومسـرحية، لا يعانون أية مشكلة، فهم يمشون مشياً طبيعياً، ويتحركون على الورق حركات مدروسة ومنطقية، ويسيرون على الأرصـفة المخصصة للمارة.

أما الشعراء فهم يؤدون رقصة متوحشة، يتخطّـى فيهـا الراقص جسده، ويتجاوز الإيقاع المرسوم، ليصبح هو نفسـه إيقاعاً.

إني أكتب الشعر ولا أدري كيف.. كما لا تدري السـمكة كيف تسبح، والعصفور كيف يطير.

الشاعر موجود في شعره بشكل إلزامي وجبـري، إنـه محتجز ومعتقل داخل الشعر كما السمكة معتقلة في محيطهـا المائي، لا تملك انسحاباً ولا خلاصاً.

خلاص الشاعر من شعره، والسمكة من مائها لا يكون إلاّ بالموت.

وما دام الشعر مزروعاً في الشاعر، حربة من البرونـز المشتعل، فمن الصعب عليه أن يكتشـف الحـدود الحقيقيـة للحرية، والحدود الحقيقية للطعنة، لأن اللحم والحرية أصبحا شيئاً واحداً..

إن تأمل الشاعر لما يجري في داخله عملٌ عسير، إنها نفس الصعوبة التي تعترض الوردة حينما تحاول أن تشم عطرها.. والفم حين يحاول تقبيل نفسه..

لذاك ليس عندي أية نظرية عن ذلك الزلزال الذي يركض تحت سطح جلدي، من أين يجيء وإلى أين يذهب؟

أنا أتلقّى الزلزال مستسلماً ومدهوشاً.. وأخرج من تحت رمادي وخرائبي ولا أدري ما الذي حصل.. وكما لا يمكن توقيت الزلازل لا يمكن توقيت الشعر..

إنه هجمة مباغتة تشق حفرة كبيرة في سكوننا، وفي وجودنا، وتنسحب قبل أن نستطيع اللحاق بها..

هذا انطباع أولي عما يحدث، إنه خاص بي، ويجوز أن تكون تجربة غيري مختلفة تماماً..

لذاك أقول ليس للشعر نظرية، كل شاعر يحمل نظريته معه.

الشعر حصان جميل الصهيل، كل واحد يركبه على طريقته الخاصة، طريقتي أنا.. هي أن لا أذلّ الحصان، ولا أكْرهه على المسير في الوعر، والوحل، والعتمة.. ركوب

الخيل أخلاق.. وأنا لا أسمح لنفسي أن أسخر مـن شـاعر يركب حصانه خطأ، أحاول أن أجد له العذر

حصان الشعر صديقي، والفارس الحقيقي لا يخون صداقة الخيل.

إني أفهم أفكار حصاني جيداً.. ألثم جبهته، أمسح عرقـه، أحكي معه طوال الطريق، وأملأ فمه لوزاً وزبيباً..

ولكن أين يسكن الشعر؟ كلما حاولت أن أتعقّب الشعر إلى حيث يسكن.. هرب مني.

ثلاثون سنة، وأنا أحاول أن أفاجئه بملابسه الداخليـة، أو عارياً.. ولكنه في كل مرة كان يلبس طاقية الإخفاء.. ويتبخّر كالروح النقي..

كنت أريد أن أهاجمه، وهو بـين قـواريره، وخرائطـه، وأقلامه الملونة.. ولكنه في كل مرة كان يشـعر بـالخطر.. كان ينسف المعمل الذي يشتغل فيه ويتلاشى.

بعد ثلاثين سنة من مطاردة الشعر في كل البيوت السرية التي كان يلتجئ إليها، وفي كل العناوين الكاذبة التي أعطاها للناس، أكتشف أن الشعر وحشٌ خرافي لم يره الناس، ولكنهم

رأوا آثار أقدامه على الأرض.. وبصـمات أصـابعه علـى الدفاتر..

كل الذين كتبوا عن الشعر، كانوا يعرفون أنهم يطـاردون حيواناً خرافياً لا يمسك ولا يقهر.

كلهم كانوا يعرفون، وهم ينبشـون القـارات والغابـات والمحيطات بحثاً عنه، أن هذا الوحش الجميل لن يسمح لهـم أن يعلّقوا جلده بالدبابيس على جدران المتاحف، والجامعات، والمدارس الثانوية.

وتستمر اللعبة المستحيلة عبر القرون، ويظلّ الصـيادون يرمون شباكهم ويسحبونها، ويبقى الشعر - هـذا الـوحش الجميل - يقفز على الشجر، وعلى القمر، وعلـى ضـفائر البنات، ويمد لسانه لجميع صياديه..

.. وبصمات أصابعه على الدفاتر..

*

لو كان الشعر وصفة، لأمكن تركيبه في دكاكين العطّارين ن ولو كانت القصيدة شجرة لاكتشفنا في أوراقها وغصـونها وجذورها كلّ تاريخ الشجر، ولو كانت حجراً لعرفنـا بعـد دراسته مختبراً بأكل تاريخ الحجر..

لكن الشعر سائل شديد التبخّر والتمدد، وإفراز إنسـاني لا يطيق سكنى الأوعية والقوارير..

الشاعر يكتب، ولكنه أسوأ من يفسـر كيميـاء الكتابـة. ويموت على دفاتره ولكنه لا يستطيع تفسير موته الشعري..

لو طلبنا من شكسبير أن يشرح لنا الطريقة التي صنع بها (هاملت) لتلكّأ.. ولو سألنا بيتهوفن أن يحـدثنا عـن مـيلاد (التاسعة) أو (الخامسة) أو (الثالثة) لأكلته الحيـرة.. ولـو سألنا روبنس أو ماتيس أو فان كوخ أو غويا أو ألغريكو عن طريقة زواج الألوان والظلال لديهم.. لتلفّتوا إلـى بعضـهم مندهشين..

وفي الشعر تتضاعف الصعوبة، إذ لا يمكن لشاعر أثنـاء فترة الشغل أن يقول لك كيف اشتغل.. ولعله بعد فترة الشغل لا يستطيع أن يتذكر كيف اشتغل..

والشعراء الذين تكلّموا عن تجاربهم الشعرية كانوا دائمـاً يطوفون حول الشعر، ويحاصـرونه حصـاراً طروادياً.. ويقفون على أطلال القصيدة المنتهية.. أي بعد تحولها إلـى رماد.. وكل بحث في الشعر، هو بحثٌ عن الرماد لا عـن النار..

ربما كانت هـذه المقدمـة غارقـة فـي ميتافيزيكيتهـا ورومانسيتها، ولا تُضيء وجه الحقيقة الشعرية، ولكن أيـن هي الحقيقة الشعرية؟ ما هو شـكلها.. فـي أي مدينـة وأي شارع تسكن؟

كيف يمكنني أن أكـون موضـوعياً حـين أكـون أنـا الموضوع؟ وكيف يمكن أن أحدثكم عن مساحة جرحي حين أكون أنا الجريح؟.

***

وبعد هذه الصفحات القليلة من " قصتي مـع الشـعر " والتي أعتبرها مقدمة الشاعر نـزار قباني (المدخل) إلـى دراستي لأعماله الشعرية، والتي لم تنته بعد، وسأقوم بإتمـام عرضها في أجزاء أخرى تماشياً مع متطلّبات الدراسة.. ".

مدخل إلى الدراسة..!

لا بد قبل البدء بالدراسة واستعراض أعمال الشاعر الراحل، من أن أقدم شكر الشاعر نزار قباني للقائد الخالد حافظ الأسد الشامخ في تكريمه، حيث يقول في أواخر عام ١٩٩٧م بعد أن تعافى من مرضه:

" إن السيد الرئيس حافظ الأسد قد حماني دائماً، وظلّلني بمظلّة حبه، وكان الأب الحنون الذي لم يتخلّ عن ابنه لحظة واحدة.. فله شكري العظيم وعرفاني، ولجميع الوزراء، والسفراء، الذين أوفدهم للسؤال عني في لندن، حاملين لي من دمشق نعيم العافية..

حفظ الله الشام، وحفظ قائدها، وشعبها، من كلّ سوء، فإذا كنت أقف على أقدامي اليوم، فإن الفضل يعود إليهم.

نزار قباني
رحيل قارة شعرية.

من أقواله أيضاً:

" إني أعترف لكم، أنني نـزفت طويلاً علـى أوراقـي، ودفعت ضريبة الشعر من جسدي، ومن صـحتي، إلاّ أننـي بالمقابل، أعترف لكم أنني أخذت من حب الناس ما لم يأخذه أي شاعر آخر.. ".

نـزار

مما قالته الشاعرة الكويتية

• سعاد الصباح عن نـزار:

.. إنه في الأمس واليوم والغد شـاعر العربيـة الكبيـر الأستاذ نـزار قباني الذي جسد الأحـلام الورديـة لجيـل وصرخة الحرية لجيل وزهرة الأمل في غدٍ أفضـل لكـل جيل..

الشاعر الذي يجسد الأرض والمرأة والغضب والمجتمـع بكلّ آماله وآلامه، وأحسبني أظلم الشـعر إذا قلـت أنـه أي شاعر سوى الأستاذ نـزار قباني..

أنا تلميذة ناجحة جداً في جامعة شـعر عربيـة أرسـى دعائمها، ورعى جداول أصواتها كبير الشعر العربي نـزار قباني.

عن الرأي العام الكويتية ١٩٩٨/٥/١م

* مما قاله الشاعر محمود درويش

كان نزار في ظني عابراً للمدارس والاتجاهات الشعرية، كأنه خط يخترق تاريخ الشعر العربي، غير مكترث بأسئلة الحداثة، ولكنه كان شاعراً مجدداً، أدخل الشعر في نسيج الحياة الاجتماعية، وبسط الشعر إلى درجة أنه حوله إلى شعر للجميع، فكان في النصف الثاني من القرن العشرين أمير الشعر العربي بحق.. وسننتظر طويلاً شاعراً آخر يعيد الشعر إلى المكانة العامة التي وضعه فيها نزار قباني.

مجلة ألوان - أيار - مايو ١٩٩٨م

*مما قاله الشاعر سميح القاسم

.. قالوا إنه يشبه عمر بن أبي ربيعة كونه كتب في المرأة والحب.. وأنا أقول: إن عمر بن أبي ربيعة من قافلة شعراء التاريخ العربي، لكن نـزار قباني هو مدرسة الشعر العربي الحديث، يعيش على روحها آلاف الشـعراء، وجيـل مـن الشباب المثقّف..

سميح القاسم

*مما قاله الدكتور غازي القصيبي

نجيئك أطفالاً، فتمنحنا الـدمى
وتحكي لنا ما كـان يفعـل عنتر
ونأتيك أطيـاراً تناثـر ريشـها
فينموا لنا ريشٌ من الشعر أخضر
ونغشاك أوطاناً تنـوء بـذلـها
ونلقـاك عشاقاً.. فتطعمنا الرؤى
لـك الله أتعبناك! لا نحن نرعوي
ولا أنـت من نـزواتنا تتضجـر..

(١)

قالت لي السمراء

(١٩٤٤م)

*** ترى هل قالت له السمراء، أم قال لها..؟!**

* في الإهداء يقول الشاعر:

قلبي كمنفضة الرمـاد.. أنا
إن تنبشي ما فيـه.. تحترقي
شـعري أنا قلبي.. ويقلقني
من لا يرى قلبي على الورق..

تتضمن مجموعة " قالت لي السـمراء " إصـدار عـام (١٩٤٤م) القصائد التالية: ورقة إلـى القـارئ - مـذعورة الفستان - مكابرة - الموعد الأول - اكتبـي لـي - أمـام قصرها - اندفاع - أنا محرومة - في المقهى - اسـمها - غرفتها - زيتية العينين - حبيبة وشتاء - مسـاء - خـاتم الخطبة - سمفونية على الصيف - إلى مصـطافة - قـَم - أحبك - مسافرة - القرط الطويل - رافعة النهد - نهداك - أفيقي - إلى عجوز - إلى زائرة - مدنّة الحليب - البغي ..

جاءت المجموعة في/٩٠/ صفحة من القطع الوسط فـي مجموعة أعماله الكاملة (إصـدار عـام ١٩٨٣م)، الجـزء الأول، تحتوي على/٢٨/ قصيدة كما رأينا، ومنـذ القـراءة الأولى للمجموعة، نجد الشاعر يكرر العديد من الكلمات في قصائد المجموعة، مثل: النجوم - الثغر - النهد - الوردة - العصافير - الفراشة - الصفصافة، والأمثلة على ذلك كثيرة في المجموعة..

في قصيدة " ورقة إلى القارئ " يقول:

أُعبئ جيبي نجـومـاً.. وأبـني

على مقـعد الشمس لي مقـعدا

وفي مقطع آخر من قصيدة " مذعورة الفستان " يقول:

وأقتحـم النـهد.. وأسراره
ولم يعـد من ذلك الكـوكب

إلى أن يقول:

مخضـرة الخطـوة.. لا تخجلي
هل تغضب الوردة كي تغضبي؟

وفي قصيدة " مذعورة الفستان " يقول:

تسلسلي، مفتاح رصـدٍ ثبي
فراشـة بيضاء، في ملعبـي

وفي قصيدة " غرفتها " يقول:

شـقراء.. لا أعـرفها لثغـة
يعيـا بها ثغـرك عنـد النقاشْ

وفي قصيدة " زيتية العينين " يقول:

كأنما عينـيك سـْط الصـبا
صفصافة تحت الضحى الزئبقي

وفي قصيدة " حبيبة وشتاء " يقول:

وهـاجر كـلّ عصـفورٍ صديـقٍ

ومـات الطيب، وارتمتِ الجذوع

ولو أردنا إحصاء عدد المرات التي يتكرر فيها ذكْر هذه الكلمات، لوجدناها لا تعد ولا تحصى، في قصائد المجموعة، وفي جميع مجموعاته اللاحقة..

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا، تُرى لماذا يكرر الشـاعر هذه الكلمات في أكثر قصائده..؟!

ولماذا التركيز على الجسد (الثغر - النهد - العيـون - الشعر - الصدر..الخ)، وعلى العصافير، والفراشات، والصفصاف (الطبيعـة)، وعلـى النجـوم، والشـمس (الفضاء)...؟!

التكرار أحياناً يفيد التأكيد على ما يدور في خلْد الشاعر، ويعني أحياناً قلة الكلمات المعجمية لدى الشاعر، وخاصة في بداية تجربته الشعرية، حيث يلون بها قصائده في كلّ مـرة، وقد تعني أشياء أخرى لأسباب تعيش في أعمـاق الشـاعر، مردها حالات نفسية، كل هذه الاحتمالات واردة فـي سـبب التكرار، وقذ تكون هناك احتمالات أخرى..!

فيما يتعلّق بتكرار الكلمات التي تتعلّق بالجسد، أستطيع القول: بما أن المرحلة التي يغزل فيها الشاعر قصائده هي مرحلة المراهقة (استناداً لسنّه، وبدء تجربته)، فإن الأسباب تعود إليها في اعتقادي، ولا تفسير آخر لذلك عندي.. لم أجد كلمة روح ، أو مشاعر وأحاسيس داخلية تتكرر في لغة الشاعر وخاصة في هذه المرحلة، وعليه أبني رأيي هذا..

أما تكرار الكلمات التي تتعلّق بالطبيعة، والفضاء، فهي حال الشاعر الإبداعية، والبذور التي تنبت من تربته، فالشاعر يلون بريشته وخياله لوحاته (رسم، وتصوير)، والشاعر نزار قباني أحب الرسم والموسيقى كما نعلم قبل أن يغزل الشعر..

ومما هو جدير بالذكْر، أنني سأعود إلى مثل هذه الكلمات المكررة في قاموس الشاعر، ومعجمه اللغوي في أكثر من مكان، للوقوف على مدى توفّقه ونجاحه في توظيف، واستخدام مثل هذه الكلمات في تجربته الشعرية..

بعد هذا أنتقل إلى جانب آخر، هو إضاءة، وكشف جوانب أخرى في قصائد الشاعر، وخاصة القصائد التي لقيتْ

استحساناً، وارتياحاً، من قبل جمهور القراء، والدارسين على السواء، وأبدأ بقصيدة " ورقة إلى قارئ ":

ورقة إلى القارئ..!

كميسِ الهوادج.. شرقية
ترشّ على الشمس حلو الحِدا
كدندنة البدو فوق سريرٍ
من الرمل، ينشف فيه الندا
مثل بكاء المآذن، سرتُ
إلى الله أجرح صحو المدى
أعبئ جيبي نجوماً..وأبني
على مقعد الشمس لي مقعدا
ويبكي الغروب على شرفتي
ويبكي..لأمنحه موعدا
شراع أنا لا يطيق الوصولْ
ضياع أنا لا يريد الهدى
حروفي، جموع السنونو، تمد
على الصحو، معطفها الأسودا
أنا الحرف. أعصابه. نبضه

تمزقه قبل أن يولدا..

أنا لبلادي..لنجماتها

لغيماتها..للشذا..للندى

سفحتُ قوارير لوني نهوراً

على وطني الأخضر المفتدى

ونتفتُ في الجو ريشي، صعوداً

ومن شرف الفكر أن يصعدا

تخيلتُ..حتى جعلتُ العطور

ترى.. ويشم اهتزاز الصدى

بـ أعراقي الحمر.. إمرأةٌ

تسير معي في مطاوي الردا

تفح..وتنفخ في أعظمي

فتجعل من رئتي موقدا

هو الجنس أحمل في جوهري

هيولاه من شاطيء المبتدا

بتركيب جسميَ جوع يحن

لآخر..جوع يمد اليدا

أتحسب أنك غيري؟ ضللتَ

فإن لنا العنصر الأوحدا

جمالك مني..فلولاي لم تك
شيئاً..ولولاي لن توجدا
ولولاي ما انفتحتْ وردةٌ
ولا فقع الثدي أو عربدا
صنعتك من أضلعي لا تكن
جحوداً لصنعي ولا ملحِدا
أضاعك قلبي، ولما وجدتك
يوماً بدربي..وجدتُ الهدى
عزفتُ، ولم أطلبِ النجم بيتاً
ولا كان حلمي أن أخلُدا
إذا قيل عني " أحس " كفاني
ولا أطلب " الشاعر الجيدا "
شعرتُ " بشيءٍ فكونتُ " شيئاً "
بعفويةٍ، دون أن أقصدا
فيا قارئي..يا رفيق الطريق
أنا الشفتان..وأنتَ الصدى
سألتك بالله.. كن ناعماً
إذا ما ضممتَ حروفي غدا
تذكّر..وأنتَ تمر عليها

عذاب الحروف..لكي توجدا

سأرتاح.. لم يك معنى وجودي

فُضولاً..ولا كان عمري سدى

فما مات من في الزمان

أحب..ولا مات من غردا.

والقصيدة كما رأينا مليئة بالصـور البديعـة، والجميلـة، (ترش على الشمس حدو الحِدا)، (بكـاء المـآذن)، (أجـرح صحو المدى)، أعبئ جيبي نجوماً)، (ويبكـي الغـروب)، (تنفخ في أعظمي)، (فقَع الثدي)، لكن هناك أمر آخر أريـد هنا توضيحه، والتركيز عليه، هـو الجـنس حيـث يقـول الشاعر:

هو الجنس أحمـل في جوهـري

هيولاه من شـاطئ المبتـ ـ ـدا

بتركيـب جسمي جـوع يحن

لآخـر.. جوع يمـد اليـ ـدا

نلاحظ هنا اعتراف الشاعر أنه يحمل الجنس في جوهره، وأن بتركيب جسمه جوعاً يحن لآخر جوع يمد اليدا، وسواء أكان هذا يتعلّق به شخصياً، أو أنه يخص العام، فهذا دليـل

راسخ على أن الشاعر ينظر إلى الجسد، قبل الـروح، وقـد تشفع له مراهقته لقول ذلك..

أما فيما يتعلّق بالقارئ والحرف نجده يقول:

فيا قارئي.. يا رفيـق الطريـق

أنا الشفتان.. و أنت الصدى

قصيدة " الموعد الأول "

ويمنحني ثغرها موعداً
فيخضر في شفتيها الصدى
وأمضي إليها..أنا شهقاتُ القلوعِ
تغازل لون المدى..
وأين القرار؟ سبقتِ الزمان
سبقتُ المكان. سبقتُ غدا
أخوض في الصبح..ملء طريقي
أريج..وملء قميصي ندى
يدي في ذراعكِ، أين الضياع
تخافينه؟ نحن نهدي الهدى
أحبكِ. فوق التصور..فوقَ
المسافات. فوق حكايا العِدا
جرحتُ الأزاميل فيكِ حملتُ
إلى شَعرك القمر الأسودا..
على الله. حتى..فلم يسجدا.

في الموعد الأول يمنحه ثغرها موعداً، فيخضر في شفتيها الصدى، يمضي إلى الموعد، ويسأل أين القرار؟ لقـد سـبق الزمان والمكان، سبق الغد، يخوض في الصبح، ملء طريقه

الأريج، وملئ قميصه الندى، يده في ذراعها، كي لا تهـرب منه، يسألها: أتخافين الضياع؟ نحن معاً نهدي الهدى.. إنـه يحبها فوق التصور.. فوق المسافات.. فوق حكايا العدا.. لقد جرح فيها الأزاميل، وحمل إلى شعرها القمر الأسودا..

(أي حمل إلى شعرها الأسود القمر)، كمـا أنـه شـجع نهديها.. فاستكبرا على الله، حتى.. فلم يسجدا..

وأعتقد أن القصيدة لم يوفّق فيها الشاعر، كما في قصـائد الأخرى، وخاصة في البيت الأخير، فلا حاجـة للشـاعر أن يزج الاستكبار على الله من قبل نهديها، حتى أنهما لم يسجدا، صورة ضعيفة، لم يوفّق فيها الشاعر.. (أشير إلى اسـتخدام الشاعر كلمتي الثغر، والنهد..).

اكتبي لي..!

إلي اكتبي ما شئتِ..إني أحبه
وأتلوه شعراً..ذلك الأدب الحلوا
وتمتص أهدابي انحناءات ريشةٍ
نسائيةِ الرعشات ناعمةِ النجوى
علي اقصصي أنباء نفسكِ..وابعثي
بشكواكِ. من مثلي يشاركِكِ الشكوى؟
لتُفرحني تلك الوريقاتُ حبرتْ
كما تُفرح الطفل الألاعيب والحلوى
وما كان يأتي الصبر..لولا صحائفٌ
تُسلّم لي سراً..فتلهمني السلوى
أحن إلى الخطّ المليس..ورقعةٍ
تطاير كالنجمات، أحرفها النشوى
أُحسكِ ما بين السطور ضحوكةً
تحدثني عيناكِ في رقّةٍ قصوى
تغلغلتِ في بال الحروف مشاتلاً
وصوتاً حريري الصدى، وداعاً، حلوا
رسائلكِ الخضراء..تحيا بمكتبي
زرعتِ جواريري شذاً وبراعما

وأجريتِ في أخشابها الماء والسروا..
إلي اكتبي إما وجدتِ وحيدةً
تدغدغكِ الأحلام في ذلك المأوى
ومرت على لين الوسادة صورتي
تخضبها دمعاً.. وتُغرقها شجوا
وما بكِ ترتابين؟ هل من غضاضةٍ
إذا كتبتْ أختُ الهوى للذي تهوى؟
ثقي بالشذا يجري بشَعرك أنهراً
رسائلكِ النعماء في أضلعي تُروى
فلستُ أنا من يستغلّ صبيةً
ليجعلها في الناس أقصوصةً تُروى
فما زال عندي - رغم كلّ سوابقي –
بقية أخلاقٍ..وشيء من التقوى.

يسـألها أن تكتب له ما تشاء، فهو يحبه ويتلـوه شـعراً، أهدابه تمتص انحناءات ريشةٍ، نسائية الرعشـات.. ناعمـة النجوى.. (صورة موفّقة)، يريد منها أن تحدثه عن نفسـها، فهو يشاركها شكواها.. إن الأوراق التي تبعثها له تفْرحه كما تُفْرح الطفل الألعاب، والحلوى (صورة جميلـة)، ويتـابع الشاعر الحديث عن رسائلها، وكيـف تتطـاير كالنجمـات

أحرفها النشوى (صورة موقّفة)، تحدثه عيونها فـي رقّـة، رسائلها مساكب ورد.. ويمضي الشاعر فـي دفعهـا إلـى الكتابة، وليس في ذلك غضاضة، إلى أن يصل بنا إلى بيـت القصيد حيث يقول:

فلسـت أنـا من يـستغلّ صبيـ ـةً
ليجعلها في الناس أقصـوصـة تُروى
فما زال عندي - رغم -كلّ سوابقي-
بقيـة أخـلاقٍ.. وشيء من التقوى

يعترف الشاعر بسوابقه الناقصة، لكنه يصرح أنه مـازال عنده بقية أخلاق، وبعض التقوى..!

وإذا كانت المباشرة واضحة في مثل هذا المقطـع، فهـي أسلوب الشاعر الذي طالما أقره، واعترف به، لكنه هنا يخلو من الفنية.. ومع ذلك فقد أوصل مقولته إلى القارئ..

(أُشير إلى استخدام كلمتي النجوم والورد في القصيدة)

أنا محرومة..!

لا أمه لا نتْ.. ولا أمي
وحبه ينام في عظمي
إن خبأتْ أمي بصندوقها
شالي. فلي شالٌ على الغيمِ
أو أوصدوا الشباك كي لا أرى
فتحتُ شباكاً من الوهمِ
ما أشفق الناس على حبنا
وأشفقتْ مساند الكرمِ
أحب عطر الجرح من أجلهِ
فهل تراهم عطّروا همي
أما بذرنا الرصد والميجنا
هناك في جنينة النجمِ..
قوافل الأقمار من رسمهِ
وما تبقّى كلّه رسمي..
وقبلنا لا شالَ شالٌ..ولا
أدرك خصر نعمةَ الضم
من فضلنا. من بعض أفضالنا
أنّاالخترعنا عالم الحلْمِ..

تبرز في القصيدة جملة (شال من الغـيم)، (شـباك مـن الوهم)، (طر الجرح)، (عطر الهم).. صور جميلة وبديعـة لكن

لكن هناك على عكسها (جنينة النجم)، (من فضلنا، مـن بعض أفضالنا)، (أنّا اخترعنا)، فيها ما يشير إلى الغرور في غير مكانه، وضعف اللغة الشعرية التي تصل إلـى درجـة العامية.. (أُشير إلى استخدام كلمة الأنجم في القصيدة).

زيتية العينين..!

زيتية العينين.. لا تُغلقي
يسلم هذا الشفقُ الفستقي
رحلتنا في نصف فيروزةٍ
أغرقتِ الدني ولم تغرقِ
في أبدٍ يبدا ولا ينتهي
في الف دنيا، بعد لم تُخلقِ
في جزرٍ تبحث عن نفسها
ومطلق يولد من مطلق
وتنتهي الدنيا ولا ينتهي
تشردي في غابة الفستق
قميصكِ الأخضر..من يا ترى
باعكِ هذا اللون..قولي اصدقي
أمِن ضفاف (السين) خيطانه
واللون من دانوبه الأزرق
أم من صغير العشب لملمتهِ
في سلّةٍ بيضاء من زنبقِ
بحيرةٌ خضراء في شطّها

نامت صبايا النور لن تتقي
كأنما عينيكِ وسطَ الضيا
صفصافةٌ تحت الضحى الزنبقي
عريشةٌ كسلى على سفحنا
عنقودها بالشمس لم يحرق
شباكي الصغير.. يفضي إلى
فُسقية..يفضي إلى المشرق
إلى نوافير رماديةٍ
تبكي بصوت أزرقٍ..أزرق
يفضي إلى لا حيث..شبّاكنا
يفضي إلى لا منتهى شيق
من ألف عامٍ وأنا مبحر
ولم أصل ولم يصل زورقي
أمضي على زمردٍ دافئٍ
يرهقني..فُديتَ يا مرهقي
وشْوشةُ البحيرات مسموعةٌ
من خلف الهدب المطرق
قطراتُ فيروزٍ على جبهتي

منكِ، على شعري، على مفرقي

يا مطر العينين..لا تنقطع

جوع الربى للأخضر المورق

يا مرفأ الفيروز.. يا متعِباً

سفينتي. لا بد أن نلتقي.

تعتبر هذه القصيدة من روائع قصائد المجموعة، وفّق في اختيار الموسيقى، والقافية، والصور، واللغة الشعرية، (أُشير إلى كلمة صفصافة في القصيدة).

فـم..!

في وجهها يدور..كالبرعمِ
بمثله الأحلام لم تحلُمِ
كلوحةٍ ناجحةٍ.. لونها
أثار حتى حائطَ المرسمِ
كفكرةٍ.. جناحها أحمر
كجملةٍ قيلتْ ولم تُفهم
كنجمةٍ قد ضيعتْ دربها
في خُصلاتِ الأسود المعتم
زجاجةٌ للطيب مختومةٌ
ليتَ أواني الطيب لم تُختم
مِن أين يا ربي عصرتَ الجنى؟
وكيف فكّرت بهذا الفمِ
وكيف بالغتَ بتدويرهِ؟
وكيف وزعتَ نقاط الدمِ؟
وكيف بالتوليب سورته
بالورد، بالعنّاب، بالعندم؟
وكيف ركّزتَ إلى جنبه

غمازةً..تهزأ بالأنجم؟

كم سنةً.. ضيعتَ في نحتهِ؟

قل لي . ألم تتعب..ألم تسأم؟

منضمةَ الشفاه..لا تُفصحي

أريد أن أبقى بوهم الفمِ..

يصف الشاعر في قصيدته فم فتاة بأنه يدور في وجهها كالبرعم، بمثله لم تحلم الأحلام، كلوحة ناجحة لونها أثار حائط المرسم، كفكرة جناحها أحمر (يجعل للفكرة جناحاً كالفراشة)، كجملة قيلتْ ولم تُفهم، كنجمة ضيعتْ دربها في خُصلات الشعر الأسود المعتم..

(صورة جميلة)، يشبهه أيضاً لزجاجة عطر مختومة.. ويسأل الشاعر ربه، من أين عصر الجنى؟ وكيف فكّر بخلق هذا الفم؟ وكيف بالغ في تدويره؟ وكيف وزع نقاط الدم؟ وكيف بالتوليب سوره؟ وبالورد والعنّاب والعندم؟ وكيف ركّز إلى جنبه غمازة تهزأ بالأنجم؟ وكم سنه ضيع في نحته؟ ويسأله أن يقول له ألم يتعب، ألم يسأم؟ ويعود ليخاطب المرأة المنضمة الشفاه.. ويطلب منها أن لا تُفصح، لأنه يريد أن يبقى بوهم الفم..

نرى أن القصيدة تتضمن وصف الفم، بالإضافة إلى سؤال الرب من أين، وكيف، وكيف؟ إلى آخره.. ومما لا شك فيـه أن الشاعر وفّق بالوصف، إلا أن بداية القصيدة بأن الفم يدور في وجهها كالبرعم..! ما علاقة الـدوران بـالبرعم؟ وهـل البرعم يدور؟ وحتى الفم هل يدور في الوجه؟ وهـل قصـد الشاعر كلمة مدور، ومن أجل استقامة الوزن، استبدل كلمـة مدور بكلمة يدور؟ الفرق كبير بـين الكلمتـين فـي اللغـة الشعرية.. ربما، ولكن..

ثم أن إقحام الرب بمثل هذه الأسئلة، كيف، وكيف، إلـى درجة مخاطبته الرب بطلب مباشر، قلْ لي. ألم تتعب.. ألـم تسأم؟ (بلغة الأمر)، أترك الحكْم للقارئ على مثل هـذا..! (أُشير إلى تكرار كلمة النجوم أكثر من مرة في القصيدة)

أحبـك..!

أحبكِ..لا أدري حدود محبتي
طباعي أعاصير..وعاطفتي سيلُ
وأعرف أني متْعب يا صديقتي
وأعرف أني أهوج..أنني طفلُ
أحب بأعصابي، أحب بريشتي
أحب بكلّي..لااعتدالٌ، ولا عقلُ
أنا الحب عندي جِدةٌ وتطرفٌ
وتكسير أبعادٍ..ونار لها أكْلُ
وتحطيم أسوارِ الثواني بلمحةٍ
وفتْح سماءٍ كلّها أعين شُهلُ
وتخطيط أكوانٍ، وتعمير أنجمٍ
ورسم زمانٍ..ماله.. ماله شكلُ
أنا ما أنا..فلتقبليني مغامراً
تجارته الأشباح، والوهم، والليلُ
أحبكِ تعتزين في خمس عشرةٍ
ونهدك في خيرٍ.. وخصرك معتل
وصدركِ مملوء بألف هديةٍ
وثغرك دفّاقُ الينابيع مبتل

تعيشين بي كالعطر يحيا بوردةٍ

وكالخمر في جوف الخوابي لها فعلُ..

وقبلكِ لم أوجد فلما مررتِ بي

تساءلتُ في نفسي: تُرى كنتُ من قبلُ

بعينيكِ..قد خبأتُ أحلى قصائدي

إذا كان فضلُ الغنا..فلكِ الفضلُ.

في قصيدة " أحبكِ " لا يعرف الشـاعر حـدود محبتـه، طباعه أعاصير، عاطفته سيل، يعترف لصديقه أنه متْعـب، وأهوج، وطفل، لكنه يحب بأعصابه، يحب بريشـته، يحـب بكلّه.. لا اعتدال، ولا عقل، الحب عنـده جِـدة وتطـرف، وتكسير أبعاد، ونار تأكل الأخضر واليابس، وتحطيم أسـوار الثواني بلمحة، وفتح سماء كلّها أعين شُهلُ، وتخطيط أكوان، وتعمير أنجم، ورسم زمان ماله شكل، إلى أن يخاطب مـن يحب بقوله: أنا ما أنا.. فلتقبليني مغامراً، تجارته الأشـباح، والوهم، والليل.. إنه يحبها أن تعتز فـي فعمرهـا الخمـس عشرة سنه، ونهدها في خيرٍ، وخصرها معتلّ، وثغرها دفّاق الينابيع، مبتلّ.. ويعود من جديد ليعترف لها أنها تعيش فيه كالعطر الذي يحيا في وردة،لها فعـل الخمـر فـي جـوف الخوابي،

(أي المعتّق)، قبلُها لم يوجد، لكنها لما مرت به تسـاءل في نفسه: ترُى كنتُ من قبل..؟! وينهـي القصـيدة ببيـت القصيد حيث يقول:

بعينيكِ.. قـد خبأتُ أحلى قصائدي

إذا كان لي فضلُ الغنا.. فلكِ الفضلُ

(أشير إلى استخدام كلمة أنجم، ونهدك، وثغرك، و بوردة في القصيدة)..

نهـداكِ..!

سمراء..صبي نهدكِ الأسمر في دنيا فمي
نهداك نبعالذّةٍ حمراء تُشعل لي دمي
متمردان على السماء..على القميص المنعمِ
صنمان عا جيان..قد ماجا ببحرٍ مضرمِ
صنمان..إني أعبد الأصنام رغم تأثّمي
فكّي الغلالةَ..واحسري عن نهدك المتضرمِ
لا تكبتي النار الحبيسة وارتعاش الأعظمِ
نار الهوى في حلمتيك أكولةٌ كجهنّمِ
خمريتان..احمرتابلظى الدم المتجهمِ..
محروقتان بشهوةٍ تبكي وصبرٍ ملْجمِ
نهداك وحشيان..والمصباح مشدوه الفمِ
والضوء منعكس على مجرى الحليب المعتمِ
وأنا أمد يدي وأسرق من حقول الأنجمِ
والحلْمةُ الحمقاء ترصدني بظفرٍ مجرمِ
وتغطّ إصبعها وتغمسها بحبرٍ من دمي
ياصلبةَ النهدين..يأبى الوهم أن تتوهمي
نهداك..أجملُ لوحتين على جدار المرسمِ
كرتان من ثلجِ الشمال..من الصباح الأكرمِ

فتقدمي. يا قطّتي الصغرى، إلي تقدمي..
وتحرري مما عليك وحطّمي..وتحطّمي..
مغرورةَ النهدين..خلّي كبرياءك وانعمي
بأصابعي..بزوابعي..برعونتي..بتهجمي
فغداً شبابك ينطفي مثل الشعاع المضرمِ
وغداً سيذوي النهد والشفتان منكِ..فأقدمي
وتفكّري بمصير نهدك بعد موت الموسمِ
لا تفزعي.. فاللثم للشعراء غير محرمِ
فكّي أسيري صدرك الطفلين..لا.لا تظلمي
نهداك ما خُلِقا للثم الثوب..لكن..للفمِ
مجنونةٌ من تحجب النهدين أو هي تحتمي
مجنونةٌ من مر عهدِ شبابها لم تُلثمِ..
..وجذبتُ منها الجسم لن تنفر..ولم تتكلّمِ
مخمورةً مالتْ علي بقدها المتهدمِ
ومضتْ تعلّلني بهذا الطافر المتكومِ
وتقولُ في سكّرٍ، معربدةً، بأرشق مبسمِ
" يا شاعري..لم ألق في العشرين من لم يفطمِ."

نرى الشاعر في القصيدة يخاطب السمراء: صبي نهـدك الأسمر في دنيا فمي (يطرق الباب بشكل مباشر في أكثـر قصائده، دون مقدمات)، ويتابع وصف نهديها بأنهما نبعا لذّة

حمراء، متمردان على السماء، وعلى القميص المنعم، همـا صنمان عاجيان، وهو يعبد الأصنام رغم تأثّمه..

في المقطع الثاني يسألها أن تفك الغلالة، وأن تكشف عن نهدها المشتعل، وأن لا تكبت النـار الحبيسـة، وارتعـاش الأعظم، فنار الهوى في حلمتيها أكولـة كجهـنّم، ويصـف حلمتيها بأنها خمريتان.. احمرتـا بلظـى الـدم المـتهجم، محروقتان بشهوةٍ تبكي، وصبرٍ ملْجم، ويتابع وصف نهديها، وحلمتيها، ويخاطبها بصلبة النهدين، وبمغـرورة النهـدين، ويتابع مغامراته الشعرية معها إلى أن ينهي القصيدة ببيـت يضمنه القصيدة:

" يا شاعري.. لم ألْقَ في العشرين من لم يفطِمِ "

نجد المبالغة في الوصف إلى درجة كبيرة، ومع ذلك من حق الشاعر أن يختار أسلوبه في مثل ذلك.. طالما هو يكتب بلغة الجنس بشكل مباشر، وسافر تماماً.. (أُشير إلى استخدام كلمة النهدين/٩/مرات في القصيدة، بالإضافة لكلمة الأنجم)..

بعد هذه الرحلة السريعة مع " قالت لي السمراء " يمكـن القول: على الرغم من أنها المجموعة الأولى للشـاعر، وأن إصدارها جاء مبكّراً، بالنسبة لسنّه (٢١) سنه، وقد غزلها

قبل ذلك بالتأكيد، لكنها كما رأينا، جاءت تتناسب مـع سـن المراهقة، وهو يعيش صراعات الجسد والشهوة، ومـع ذلك فقد وفّق إلى درجـة كبيرة في فنّيتهـا (مـن حيـث اللغـة الشعرية، والصور الجميلة، والخيال الخصب)، وإن كان هو الذي قال عن السمراء، ولم تقل هي شيئاً عنه إلا ما نـدر.. كما وفّق في اختيار البحور المناسبة، والقوافي التـي قلّمـا جاءت مقحمة، جاءت موسيقى قصائده راقصـة، وصـوره لوحات مرسومة، وملونة بريشة فنّان مبدع، وكيف لا، وهو الذي أحب الرسم والموسيقى قبل أن يكون شاعراً، فلا عجب أن يمزج بين هذا وذاك في لوحاتـه الشـعرية، بالإضـافة للتنويع والتجديد والتنامي في بدء تجربته الشعرية، وخاصـة وقد اختار مسرح عملياته الشعرية الجسد والشهوة معاً..

*

وقبل أن أختتم دراسة " قالت لي السمراء " لا بـد مـن الإشارة أن الكلمات التي ترددت على لسان الشاعر، وسالت من قلمه، لم تقتصر على القصائد التي مر ذكرهـا، وإنمـا تكررت في أكثر قصائده، كما أشرت من قبل: ففي قصيدة " مكابرة " (ص٢٣) تتكـرر كلمـة الأنجم، وفـي قصـيدة " اندفاع " (ص٣٢) تتكرر كلمة النجوم أكثر من مـرة، وفـي

قصيدة " في المقهى " تتكرر كلمة الـورد، والأنجـم، وفـي قصيدة " اسمها " تتكرر كلمة النهد، وفي قصيدة " غرفتهـا " تتكرر كلمة ثغرك أكثر من مرة، وفي قصيدة " حبيبة وشتاء " تتكرر كلمة عصفور، والنجمات، وفي قصـيدة " مسـاء " تتكرر كلمة الأنجم، وعصافيرها، والنهد، وفي قصيدة "خاتم الخطبة " تتكرر كلمة النجم، وفي قصيدة " سـمفونية علـى الرقص " تتكرر كلمة صفصافة، وانهد، وفي قصيدة " إلـى صفصافة " تتكرر كلمة عصفورة، وصفصافة، والعصـافير، وهكذا إلى آخر المجموعة (وستستمر الإشارة إلى تكـرار مثل هذه الكلمات، للتعليق عليها فيما بعد..).

وبعد هذه الرحلة الممتعة مع "قالت لي السمراء " لا بد من رحلة قصيرة أخرى مع بعض ما قيل في كتاب " رحلة شوق مع نزار قباني " للناقد علي المصري، ويعتبر هذا الكتاب من أجمل ما كتب عن الشاعر نزار قباني، وفي حياته، حيث نجد على الصفحة الخلفية للغلاف رأي الشاعر نفسه في ما كتبـه الناقد علي المصري، حيث يقول:

" يحاصرني علي المصري بحبه العظيم حصاراً لا يترك لي مجالاً للتعليق أو الاعتراض.. أو للتنفّس..

وعلي المصري يفهم الحب علـى طريقتـه، أي يفهمـه اجتياحاً.. واحتلالاً.. وحكماً غير قابل للاعتـراض.وربمـا كانت نظرة علي المصري إلى الحـب النظـرة الأصـدق.. والأجمل لي وعندما طلبت من علي أن يعصمني من مطـر حبه.. قال لي: لا عاصم لك من الماء..

وعندما سألته أن ينقدني قليلاً.. أو يجرحنـي قلـيلاً.. أو يذبحني قليلاً.. قال لي: وكيف تريدني أن أذبحك وفي دمـك تجري كل أنهار دمشق.. وتصدح كلّ حماماتها؟

وبعد.. فهذا كتاب يسجل فيه علي المصري حبه لي بكـل التفاصيل، ويضيء فيه زوايا من حيـاتي ومـن شـعري لا يعرفها الكثيرون.

ولسوف يكتشف القارئ، بعد أن يفرغ من قراءة الكتاب، أن علي المصري سكن تحت جلدي خمساً وعشرين سـنة.. وسجل ضربات قلبي، وإيقاع دورتي الدموية.. وكان خـلال رحلته الطويلة معي عدسةً تلتقط كل الأصـوات والألـوان والروائح.

ربما لا يتقيد الكتاب بنظريات النقد وأصوله، فهو كتـاب حب حقيقي.. والحب الحقيقي هو فوق الأصول والنظريات.

نزار قباني

وعليه نجد أن الكتاب لا يتضمن نقداً موضوعياً بمعنى النقد، لكنه مجرد إضاءة على دروب رحلة الشاعر لا أكثر، وهناك أكثر من دليل على ذلك.. ومع ذلك فقد جاء الكتاب بمثابة قصيدة شعرية جميلة، من خلال اللغة الشعرية التي صبها الناقد في الكتاب صباً بديعاً، وقد أفقدتها المبالغة الكثير من الموضوعية، لذلك نجد الشاعر راضٍ كل الرضا عما جاء فيها، وهو ما يلمسه القارئ مما كتبه على الغلاف كشهادة منه للناقد علي المصري.. وللأمانة لا بد من الاعتراف بأن في طيات الكتاب الفائدة كل الفائدة للقارئ في إضاءة رحلة الشاعر، وسأعرض بعض ما قاله الناقد في مقدمة الكتاب:

" تحية شكر للذين سيتسلّقون معي عرائش هذه الرحلة على مدارج الشوق والحنين عبر حقول الشذى والضوع، مع شعر نزار قباني، في واحاته المضيئة المزروعة على أجفان السحاب، المنسكبة من حناجر الوهج والعطاء ندى على ظمأ التلقي والسماع، في هنيهة نحطم بها الساعات، لنعانق الفكر

المتوهج والروح المتألقة الدافقة على برزخ الخلـود، حيـث يتوقف الزمن وتفنى المسافات.

وأعتذر لأولئك الذين يدعون فهم خفايا القصيدة كلها مـن القراءة الأولى، فهؤلاء هم عباقرة نادرون، وعلى الرغم من هذا، فإنني أستميحهم العذر أن يحتفظوا بنقدهم لتلك القصـيدة لأنفسهم. لأن القصيدة دنيا كاملةٌ بأبعادها وتضاريسـها، ولا يعقل بالنظرة الشمولية فك رموزها وفهم أسرارها. لذا يبقـى نقدهم سطحياً مهما حشوه بألفاظ المنهجيـة والموضـوعية. وذلك بدليل قصة الشيخ وأبي نواس مع بيته:

" ألا فاسقـ ـني خمراً وقل لي هي الخمر

ولا تسقـ ـ ـني سراً إذا أمكن الجهر "

كما وأعتذر للقصيدة نفسها، هذه القصيدة المصنوعة مـن وهج الدم الأحمر، والمرصوفة من حجارة الأعين، وانبثـاق النور من غدد الجمال في وجدان الشاعرة فالقصيدة يا قارئي العزيز ليست " إناء رومانياً أو فينيقياً من الفخّـار، تنتهـي مهمتنا بقراءة الكتابة المحفورة عليه.

القصيدة ليست مادةً منتهية، ليست زمناً ميتاً. إنّها جسـر ممدود على كل الأزمنة. إن "هاملت " لا ينتهي إلى العصـر

الايليزابيتي فقط، ولكن ظلّه ينسحب علـى كـل العصـور. وحرية " بول ايلوارا " هي ليست حرية فرنسا وحدها، وإنمـا هي حرية الزنوج والفيتناميين والفلسـطينيين، وكـل مـن يزرعون الرماح في لحم جلاّديهم. ودم " لوركا " المسـفوح في بساتين غرناطة، ليس دماً أندلسياً فقـط، وإنمـا هـو دم البشرية كلها ... والمتنبي هذا الذي يقفُ وحـده فـي كفّـة الميزان، ويقف الزمان كُله في الكفة الأخرى، يبدو لي رجلاً لا جنسية له، ولا جواز سفر، رجلاً يقفز على جبهة العصور كلها".

وأعتذر للفهم أيضاً، لأن فهم القصيدة تاريخياً هـو فهـم خاطئ " لأن التاريخ هو علم الحوادث الميتة، علم الحـوادث التي توقفت عن الفعل والانفعال. أما القصيدة فليسـت مـادة منتهية وليست زمناً ميتاً.. إن سيف الدولة (حادثٌ تاريخي) ولهذا فهو قابل للموت. أما المتنبي فهـو (حـادثٌ شـعري) خارج سلطة الموت. وإذا كان سيفُ الدولة الحمداني لا يزالُ يتنفس في ذاكرتنا حتى اليوم، فلأن قصائد المتنبي فيه، هـي التي جعلت تنفسه ممكناً " .

وأعتذر للذين اعتادوا الرحلة والسفر على ناقـة النابغـة بصحبة وحش وجرةَ. لأنه لن يروق لهم السفر مع شعر نزار على (جندول) عبر دروب فينيسيا والوادي الكبير، بصـحبة زوبعة من العطور ترشها جدائلُ دليلةٍ شقراء علـى أبـواب قصر الحمراء. أو أعطاف ماردةٍ سويدية من ماردات الشمال تضع القمر على ذوائبها وتتعلق نجوم المجرة بأذيالها.

أعتذر لهم ولكل الذين ما زالوا يعيشون بمنطق الطبـل، ويحركون أقدامهم لنغمة الوتر الواحد، منطق الربابة والدف، لأنه لن يعجبهم شعر نزار. فالبناء الهرموني لشعر نـزار بناء (سمفوني) تختلط فيه الألوان بالضوء، وتمتـزج فيـه الأنغام مع الظلال، والصور مع قهقهات الفكر الوضيئ، في سيل هادرٍ يقيم الدنيا ويقعدها على إفـراز جمـالي يسـربل الكون بألف غيمة بنفسجية تمطر زمرداً وحباً وياقوتا .

كما أعتذر للمتأدبين المحدثين، دعاة التقدمية فـي اللغـة، والغموض في الأدب، وأصحاب الألفاظ المتدحرجة والأفكار السديمية الغائمة، أعتذر منهم جميعاً لأن الرحلة مـن شـعر نزار ولغة نزار وتألق نزار، ستتعبهم بوضوحها وصـفائها

وزينتها، ولأنها تحتاج إلى تألق هادئ وسماع ركين بعيداً عن طقطقة أحجار النرد وقرقعة الأناشيد المدرسية.

وأخيراً أعتذر لأبجدية نزار التي تتسلّق أصابعي وتتعربش في حنجرتي، وتشرنق على قمصاني ومناديلي وشراشفي، وتشرش في قلبي وفكري وقلمي.. فلا انعتاق لي من دواليها وعطورها التي دفعتني بنشوة غامرة عبر مساربها الندية وظلالها السرمدية طيلة ربع قرن ونيف، أعتذر لبنات فكره وهدايا روحه، التي أفتتح بها دروس الأدب في الصفوف الثانوية العليا.. وقصائده العذبة الطرية التي يحفظها أصغر أطفالي، وأغاني حبيباتي، وأصدقاء جلساتي، وأوشّي بها سطور رسالاتي.

دمشق ١٩٧٧/٤/١

علي المصري

وفي الكتاب تعرض الناقد علي المصري إلـى العوامـل الفاعلة التي أذكت وفتّقت شاعرية نزار، كما يراها وهي:

- الجنّة التي قُدر لها أن تكون مسقطاً لرأس الشاعر.
- ثقافته المبكرة ومطالعاته الأدبية باللغات الأجنبية.
- العوامل الوراثية التي فجرت مخزون الشاعر الفنّي.
- السفر والتجوال في مشارق الأرض ومغاربها:

١- التجربة المصرية.

٢- التجربة الإنكليزية.

٣- التجربة الإسبانية.

٤- التجربة الصينية.

٥- التجربة اللبنانية.

٦- تجربة القراءات الشعرية.

وهذه التقسيمات اعتمدها الناقد في دراسة " رحلة شـوق نزار قباني " كما سماها الناقد.. هذا بالإضافة إلى المراحـل الفنية التي مرت بها لغة نزار الشعرية:

- تمهيد.. اللغة القبانية المتميزة.

٧- مرحلة التطريز أو السيراميك والنغم (دمشق - القاهرة)

٨- ١٩٤٤-١٩٥٢

٩- المرحلة الرمادية أو مرحلة الاختزال.. لنـدن ١٩٥٢-١٩٥٥

١٠- المرحلة الصينية الصفراء، أو مرحلة الحزن.. الصين ١٩٥٨-١٩٦٠

١١- المرحلة الحارة أو مرحلة عدم الحياد.. إسبانيا ١٩٦٢-١٩٦٦

١٢- المرحلة القرميدية أو مرحلة الاستقرار.. لبنان ١٩٦٦-..

١٣- المرحلة الحزيرانية أو مرحلة الانقلاب والثورة السياسية.. أرض العروبة ١٩٦٧

ثم أضاف الصراع بين جديد نزار والقديم المتوارث:

١٤- الصراع بين القديم والحديث.

١٥- الأشواك التي علقت بأثواب الشعر خلال ثـورة التجديد.

١٦- شعرنا متخاف لأننا متخلّفون وليس العكس.

١٧- دراسة مقارنة بين القصيدة الكلاسيكية والقصيدة القبانية.

بعد ذلك تعرض للمرأة في شعر نزار قباني:

١٨- الوطن وراء الحب والمرأة في شعر نزار.

١٩- تبنّي شعر نزار الدفاع عن قضية المرأة.

٢٠- من هي المرأة التي أحبها نزار؟

٢١- لماذا اختار الشاعر المرأة هدفاً نضالياً.

وأخيراً، تعرض لنثر نزار.

هذا كل ما تضمنه الكتاب، وقد أوضحت فهرس الكتاب لأبين المناحي التي درسها الناقد، واعتمدها منهجاً لدراسته، وسأوضح التباين بيني وبينه فيما بعد لأبين أن المبالغة نتيجة المحبة قد تضر بالنقد كثيراً إلى درجة أنها قد تفقده المصداقية في بعض الأوقات.

أما كتاب " رحلة الشعر والحياة " للشاعر نزار قباني، للناقد ديب علي حسن، حيث يقدم لكتابه " نزار قباني الربيع الدائم " حيث يقول:

" نزار قباني أشهر شاعر عربي، جمهوريته امتدت من مغرب الوطن إلى مشارقه، جمهورها نساء وشباب، عوالمها ثرية غنية، إنه صاحب مشروع المدينة الشاعرة مقابل

المدينة الفاضلة، وبين الجمهوريتين علاقة خفية مغزولة من شغاف القلب، فالشعر فضيلة، والفضيلة شعور وموقف.

لقد ملأ نزار قباني دنيانا فرحاً وسروراً، وألقاً وعطـاء، كان المجدد الأول في الموضوع، وأعلن ثورة المرأة العربية، حرر النهود والشفاه وجعل من العشق كتاباً تتلى فصوله ليل نهار.

مسيرة نزار قباني الإبداعية تاريخ حافل بالعطاء، بـدأت منذ عام ١٩٤٤م وما تزال مستمرة وخلال مسيرته الطويلـة أثار حوله العديد من الزوابع والمعارك.. هاجمه الكثيـرون، وأيده آخرون.. باعت أمه أساورها حتى يطبع ديوانه الأول، وثار أهل دمشق عليه كما ثاروا على جد من جدود العائلـة من قبل (أبو خليل القباني).

وفي أسرة نزار حادثة عشق واستشهاد كما يقول " ويـوم مشى في جنازة أخته كان الحب يمشـي إلـى جـانبي فـي الجنازة، ويشد على ذراعي ويبكي.. وحين زرعوا أختي في التراب.. وعدنا في اليوم التالي لنزورها، لم نجـد القبـر.. وإنما وجدنا في مكانه وردة.. هل كان موت أختي في سبيل الحب أحد العوامل النفسية التي جعلتني أتوفر لشعر الحـب

بكل طاقاتي وأهبه أجمل كلماتي؟! هل كانت كتابـاتي عـن الحب تعويضاً لما حرمت منه أختي،وانتقاماً لها من مجتمـع يرفض الحب ويطارده بالفؤوس والبنادق؟!

إنني لا أؤكد هذا العامل النفسي ولا أنفيه، ولكنني متأكـد من أن مصرع أختي العاشقة كسر شيئاً في داخلي.. وتـرك على سطح بحيرة طفولتي أكثر من دائرة.. وأكثر من إشارة استفهام.."

نزار قباني شاعر الحب تارة، وشاعر المرأة تارة أخرى، كما يقول البعض، وهو الشاعر العصي على التصنيف كمـا يقول، ودون شك ما من شاعر عربي معاصر شـغل النقـاد كما شغلهم نزار، حللوه نفسياً وجسدياً، تابعوا تاريخ حياتـه يوماً بيوم، مئات الأبحاث والدراسـات، وعشـرات الكتـب والأطروحات الأكاديمية تناولت شعر نـزار وموضـوعاته، والكل ركّز على المرأة في شعر نزار وحياة نزار، واتجـه آخرون إلى التحليل النفسي فكانت دراسة د خرسـيتو نجـم (النرجسية في أدب نزار).

ونزار لم يترك النقاد يشرحونه ويكتبون سـيرته فكتـب سيرته هو، فكان كتابه " قصتي مع الشعر " وله مسـاهمات

أخرى كثيرة في مجال إضاءة شعره، فهناك كتابان هامان له هما:

عن الشعر والجنس والثورة، والمرأة في شـعري وفـي حياتي ".

وباختصار ليس هناك من مزيد، ما لم يقله النقاد قاله نزار قباني، ومع ذلك فهو كالبحر من أي الجهـات جئتـه، فهـو الموج الهادر المتلاطم، فشعره يحتاج إلى آلاف القـراءات، وهو كالنور الساطع كلما ازدادت طاقته ازداد إبهاراً..

ومن هنا يبرز السؤال التالي: ما الذي سيقدمه هذا الكتاب؟ هل يحمل جديداً؟!

الإجابة أتركها للقارئ، ولكن أقول إن هذا الكتـاب جـاء لضرورات كثيرة من أهمها أن شعر نزار الذي استغرق أكثر من/٥٠/ مجموعة، صار رغيف خبز لشبابنا وشاباتنا، ولغته الثرة، وأسلوبه الرائع خير زاد لشبابنا، ولكـن المجموعـات متناثرة، والثمن غالٍ، فمن يشتري مجموعة لا يسـتطيع أن يكمل شراء المجموعات الأخرى، فكان الهدف الأول من هذا الكتاب جمع ما يمكن جمعه من شعر نزار، واختيار ما يمكن أن نقول عنه من عيون شعره أو شعره كله عيون وأزاهير،

وهناك سبب آخر هو تسجيل شهادات عن نزار في مناسبات متعددة، بعضها معه وبعضها الآخر عليـه، وتركناهـا دون تعليق ليكون للقارئ حرية إبداء الرأي.

والسبب الثاني أن يأتي هذا الكتاب تحية لنزار قباني في عيد ميلاده الرابع والسبعين.

الكتاب لا يحمل وجهة نظر خاصة، يكاد أن يكون نزارياً، فهو مختارات من شعره ونثره، جاء ليكون بمثابـة كتـاب يحمل في طياته سيرة حياة الشاعر وملامح عريضـة مـن تجربته الشعرية ومختارات شعرية، وبـذلك يكـون أشـبه بمرجع يمكن أن يسد نقصاً في هذا المجال.

في شعر نزار الكثير من الحزن والألم والقسوة، الشـاعر رقيق الحزن، رقيق الألم، لكنه رقيق الفرح والأمل، توحـد الشاعر بماء العشق وأمطر السماء شعراً طاهراً نقياً، لكنـه في النهاية ملوث بمجراه.

في شعره السياسي هناك غضب وثورة تكاد تتحول إلـى لعنة على العرب والعروبة، يبررها البعض،وينكرها آخرون.

بحق إن نزار أول شاعر عربي طـرح قضـية المـرأة والجنس بمثل هذه الصراحة، وهو الشـاعر الأول الـذي لا

تستطيع أن تأخذ رأياً صريحاً له، فهو كتلة من المتناقضـات التي لها ما يبررها، فهو تارة عاشق متيم، وتارة سادي، إنه يبحث عن الخلود في الشعر والحياة، إن نـزار الدبلوماسـي جعل من شهرة نزار الشاعر شيئاً كبيراً، لقد استطاع أن يعيد للشاعر مكانته، ولكنها مكانة شخصية، فهـو يتعامـل فـي تصريحاته وأحاديثه بإثارة كبيرة، إنه شاعر إعلانـي عـن نفسه وذاته وشعره وأكاد أجزم أن نزاراً قـد خلـق لنفسـه فضاءات من العداوات الوهمية التي لا وجود لها على أرض الواقع، يتحدث عن اضطهاده ومهاجمته، وعـن مصـادرة شعره، لكن اذهب إلى المكاتب والأرصفة ستجد كتبه تمـلأ الشوارع والمكتبات، إنه شاعر صدامي إن لم يجد من يناوشه ويصادمه صادم نفسه وافتعل معركته الوهمية.

فإلى نزار الشاعر الكبير أبداً والنهر الثالث في سـورية، إلى من جعل لغة الشعب لغة شعرية تزهو بثوبها الربيعـي الدائم، إلى نزار قباني الإنسان والشاعر، هذا العمل في عيـد ميلاده الرابع والسبعين، إنه باقة ورد آمل أن تكون عطرة.

ديب علي حسن

ومن هذه المقدمة الربيعية نكتشف بسهوله الجوانب التـي أراد الناقد أو الدارس إبرازها أو إضاءتها في الكتاب، وهي مما لا شك فيه فيها الفائدة كل الفائدة للدارس والقارئ معاً..

في صفحة/٢٨/ يتحدث الكاتب عن البـدايات والـديوان الأول، على أنها ولادة بحرية، تفجرت كما يقول نزار وهـو في طريقه، كتب يقول: " وحين كانت طيور النورس تلمـس الزبد الأبيض عن أقدام السفينة المبحرة مـن بيـروت إلـى إيطاليا في صيف ١٩٣٩م، وفيما كان رفـاق الرحلـة مـن الطلاب والطالبات يتضاحكون ويمشون ويأخـذون الصـور التذكارية على ظهر السفينة، كنت أقف وحدي في مقـدمتها أدمدم الكلمة الأولى من أول بيت شعر نظمته فـي حيـاتي، أذهلتني المفاجأة، قفز البيت الأول من فمـي كأنـه سـمكة حمراء تنط من أعماق الماء، بعد دقيقتـين قفـزت السـمكة الثانية.. وبعد عشر دقائق قفزت الثالثـة ثـم الرابعـة ثـم الخامسة، ثم العاشرة، طرت فرحاً باختلاج السمك الأحمـر والأزرق والذهبي في فمي، فما عدت أعرف ما أفعل، كيف التقط السمك، أين أضعه، ماذا أطعمه لبيقى حياً..؟! "

بعدها مباشرة تناول الكاتب " قالت لي السـمراء، ديـوان الفاسق والبغي " كما سماه .. حيث يقول: " إذا كانت أسماك نزار الأولى قد قفزت من فمه مباشرة إلى ماء البحر علـى ظهر السفينة المبحرة إلى إيطاليا، وذهبت إلى عالمها المائي، فإنها في دمشق المحاطة بالياسمين وبالحور وبالغوطـة لـم تستطع أن تقفز إلى نهر بردى، بل قفزت حجـارة دمشـق وبيضها الفاسد لتصل إلى رأس نزار قباني إن اسـتطاعت، هذا ما فعله ديوانه الأول " قالت لي السمراء "..

لقد أقام الدنيا وأقعدها، حرك الماء الآسن، وكسر حـاجز الحياء وأعلن أن ماء دمشق وياسمينها لن يبقى أسير البيوت المغلقة، ولن يبقى صحراء الزمن القاحل تفرض شـروطها على روعة دمشق ودهشتها، نشر نزار ديوانه الأول " قالت لي السمراء " في أيلول سنة ١٩٤٤ ومولها مـن مصـروفه الشخصي، وكان عدد نسخها/٣٠٠/ نسخة..

الجريمة: وعن ردات الفعل على عمله هذا يقول نـزار قباني: " وتحرك التـاريخيون ضـدي، رفضـوا العنـوان والمضمون، هاجموني بشراسة وحش مطعون " ففي شـهر آذار سنة ١٩٤٦ من مجلة الرسالة المصرية، كتـب الشـيخ

علي الطنطاوي: طبع في دمشق كتاب صغير زاهي الغلاف ناعم ملفوف بورق الشفاف الذي تُلفّ به علب /الشـكولاته/ في الأعراس معقود عليه شـريط أحمـر كالـذي أوجـب الفرنسيون أول العهد باحتلالهم الشام وضعه فـي خصـور (بعضهن)، (ليعرفن) به، - أي الديوان - كلام مطبـوع على صفة الشعر، فيـه أشـعار طولهـا واحـد إذا قسـتها بالسنتمترات، يشتمل على وصف ما يكـون بـين الفاسـق، والقارح، والغي، المتمرسة الوقحة، وصفاً واقعياً، لا خيـال فيه، لأن صاحبه ليس بالأديب الواسع الخيال، بل هو مـدلل عزيز على أبويه، وهو طالب مدرسة، وقد قرأ كتابه الطلاب في مدارسهم والطالبات وفي الكتاب مع ذلك تجديد في بحور العروض يختلط فيه البحر البسيط والبحر الأبيض المتوسط، وتجديد في قواعد النحو لأن الناس قد ملّـوا رفـع الفاعـل، ونصب المفعول، ومضى عليهم ثلاثة آلاف سنة وهم يقيمون عليه فلم يكن بد عن هذا التجديد..".

ويقول نزار إن هذا الديوان كان أزهـار الشـر بالنسـبة لدمشق مثل بودلير، وقصيدة " نهداك " في هـذه المجموعـة كانت الشرارة الأولى التي أطلقتني والمفتاح إلى شهرتي.

والطلبة العراقيون كانوا يسكرون عليها على ضفاف دجلة، واللبنانيون كانوا يمزمزونها على موائد العرق في زحلة، وفي المدارس كان الطلاب يضعونها داخل كتب الحساب والجغرافيا، ويكتبون بعض أبياتها على الألواح السوداء، والطلاب هم الذين نثروني على كل الآفاق، وهم الذين طوبوني وعمدوني.

وكما يقول فخلال شهر طارت الثلاث مئة نسخة..".

ومن المعروف (والقول للكاتب ديب) أن الكثيرين من رجالات دمشق وشيوخها وقفوا ضد الشاعر ومجموعته، لكن والد الشاعر كان متفهماً لشاعرية ابنه ولم يقف موقف المعارض، كما يقول الشاعر نزار قباني.

كتب مقدمة الطبعة الأولى الدكتور منير العجلاني، ومما كتبه في هذه المقدمة " لا نقرأ هذا الديوان، فما كُتب ليقرأ.. لكنه كُتِب ليغنّى.. ويشم.. ويضم.. وتجد فيه النفس دنيا ملهمة.

ديوان صغير، صغير.. مثل حبيبنا (حسن) الذي لخّص دموسه فتونه بهذه الكلمات: " خلقه الله صغيراً ليأتي أملح وأجمل وأنفذ سحراً ".

يا نزار..!

لم تولد في مدرسة المتنبي، فما أجدك تعنى بشـيء مـن الرثاء والمديح والحكمة، وما أجدك تعنى بالبيت الواحد مـن القصيدة يضرب مثلاً، وما أجدك بعد هذا تعنـى بالأسـاليب التي ألفها شعراؤنا وأدبائنا، وإنما أنت (شيء جديـد) فـي عالمنا و (مخلوق غريب).

وكأني أجد في طبيعتك الشاعرة روائح بودلير وفيـرلين وألبير سامان، وغيرهم من أصحاب الشعر المزي والشـعر النقي.

نزار..! لا أسألك.. إنما أسأل الله شيئاً واحداً.. أن تبقى كما أنت، طفلاً، يصور.. يغنّي.. ويعشق..

كأنه ملاك يمشي على الأرض ويعيش فـي السـماء.. لا تطلب " الشاعر الخالد " فإن الشاعر الخالد الذي يعيش فـي المجامع العلمية والمكتبات الأثرية، يجر وراءه في الطريق، الصحراء القاحلة، وعفونة جماعة من أغبياء المعلمين، أمـا أنت.. فإنك تمر مرور الموكب الملكي أو الملائكي:

مررتِ أم نوار مر هنا

لولاك وجه الأرض لم يعشبِ

تمهلي في السير.. هل رغبة
ظلّت بصدر الدرب لم ترغبِ
شارعنا.. أنكر تاريخه
والتفّ بالعقد وبالجوربِ
أذرعنا.. أذرع أشواقنا
تهتف بالذهاب.. لا تذهبِ
دوسي فمن خطوك قد زرر
الرصيف.. يا للموسمِ الطيبِ
يا للموسم الطيبِ..!

ما أجد أحلى من هذه الكلمة في تحية ديوانك.

وعن بدايات الشاعر يقول الأستاذ عبد الغني العطري في كتابه " عبقريات من بلادي ": " زارني نزار سنة ١٩٤١ في مجلة الصباح، وكان يحمل مغلّفاً أزرق اللون، وناولني قطعة ورق كانت في داخله، فإذا بي أجد قصـيدة شـعر تحمـل عنوان/ نهداكِ/ وقد كتبت بخط صغير، منمنم، وكلمات بعض حروفها مشكولة، قرأت القصيدة بإمعان وحين فرغت منهـا رفعت رأسي لأقول: القصيدة جيدة ولا شك، ولكنها جريئـة أكثر من اللازم وقد يسبب لي نشرها متاعب مع المتـزمتين من الناس.

ولكن نزار أخذ يلقي علي درساً بالشجاعة والجرأة وعدم الاستسلام أمام التيارات الرجعية، ثم ناولني (كليشيه) كـان قد أعدها سلفاً لعنوان القصيدة، وظهرت قصيدة/ نهداكِ/ في العدد التالي من (الصباح) بعض الأدباء أعجـب بهـا كـل الإعجاب، وبعضهم سجل بعض المآخذ عليها..

هذا ما قاله الكاتب ديب علي حسن على لسانه وعلى لسان الآخرين..

وقبل أن ننتهي من ديوان " قالت لي السمراء " أسأل: ألم يكتب الشاعر نزار قباني عن هذا الديوان في " قصتي مـع الشعر "؟ الواقع لقد كتب..

يقول نزار قباني: " وفي جو هذه الإنكشـارية الشـعرية (حديث سابق يتعلّق بالرأسمالية الشعرية)، نشرت مجموعتي الأولى " قالت لي السمراء " في أيلـول (سـبتمبر) ١٩٤٤. نشرتها من مصروف جيبي، وكانت الطبعـة الأولـى منـه (٣٠٠) نسخة فقط.. لأن ميزانيتي كطالب لم تكـن تسـمح بأكثر..وبلحظة تحرك التاريخ ضدي.. وتحرك التـاريخيون، رفضوا الكتاب جملة وتفصيلاً، رفضوا عنوانـه، ورفضـوا حتى لون ورقه.. وصورة غلافه.. هاجموني بشراسة وحش

مطعون..كان لحمي يومئذٍ طرياً.. وسكاكينهم حادة.. وابتدأت حفلة الرجم..

ففـــي عـــدد شـــهر مـــارس ١٩٤٦ مـــن مجلـــة (الرسالة) المصرية، كتب الشيخ علي الطنطاوي عنّي وعـن كتابي، الكلام الدموي التالي:

" طبع في دمشق كتاب صغير زاهـي الغـلاف ناعمـه، ملفوف بالورق الشفاف الذي تلف به علب " الشكولاته) فـي الأعراس، معقود عليه شريط أحمر كالذي أوجب الفرنسيون أول العهد باحتلالهم الشام وضعه في خصـور (بعضـهن) ليعرفن به. فيه كلام مطبوع على صفة الشعر، فيه أشـطار طولها واحد إذا قستها بالسنتيمترات..

" يشتمل على وصف ما يكون بين الفاسق والقارح والبغي المتمرسة الوقحة وصفاً واقعياً، لا خيال فيـه، لأن صـاحبه ليس بالأديب الواسع الخيال، بل هو مدلل غني، عزيز علـى أبويه، وهو طالب في مدرسة. وقد قرأ كتابه الطـلاب فـي مدارسهم والطالبات.

" وفي الكتاب مع ذلك تجديد في بحور العروض، يخـتلط فيه البحر البسيط المتوسط، وتجديد في قواعـد النحـو لأن

الناس قد ملّوا رفع الفاعل ونصب المفعول، ومضى علـيهم ثلاثة آلاف سنة وهم يقيمون عليه، فلـم يكن بد عـن هـذا التجديد.."

*

هذا نموذج مصغر لواحد من الخناجر التـي اسـتعملت لقتلي.. صوتٌ واحد من أصوات القبيلة التي تحلّقت حـولي، ترقص رقصة الموت، وتقرع الطبول، وتتلذذ بأكـل لحمـي نيئاً.. وإذا كنت قد نجوت من هذا الاحتفال البربري بقـدرة قادر، فإن الحروق، والرضوض، والكدمات، جعلتني أكثـر تمسكاً بخشبة صليبي، وأكثر إدراكاً للعلاقة العضوية التـي تربطُ الإبداع بالموت.. والكتابة بالاستشهاد.

نحن حين نكتب، نكسر شيئاً. ومن طبيعة الشيء المكسور أن يصرخ دفاعاً عن نفسه.

و " قالت لي السمراء " حين صدوره عام ١٩٤٤ أحـدث وجعاً عميقاً في جسد المدينـة التـي تـرفض أن تعتـرف بجسدها.. أو بأحلامها.. كان دبوساً فـي عصـب المدينـة الممدودة منذ خمسمئة عام، على طاولة التخدير.. تأكل فـي نومها، وتعشق في نومها، وتمارس الجنس في نومها..

(قالت لي السمراء) كان كتابـاً ضـد التـاريخ وضـد التاريخيين. ومن سوء حظه - أو ربما من حسن حظه - أنه ولد بين أضراس التنين..

إنني أحترم التاريخ حين يكون شرارة تضيء المسـتقبل، ولكنني أرفضه بعنف، حين يتحول إلى نصب تـذكاري.. أو إلى برشامة كتب على غلافها الخارجي: " ليس في الإمكـان أبدع مما كان..".

و (قالت لي السمراء) كان محاولـةً طفوليـة صـغيرة، لتجاوز (ما كان) إلى ما (يمكن أن يكون).. ولنقل الشـعر من مرحلة السكون التاريخي، إلى مرحلة الحركة والتجاوز.

إذا كانت معلقة " عمرو بن كلثوم " محطّة من محطّـات التاريخ، فلا يصح أن نبقى محبوسين فيها إلى ما شـاء الله، وإذا كانت الربابة إرثاً تاريخياً جميلاً، فلا يجـوز أن تبقـى نهاية الطرب. إذا كانت (مقامات الحريري) إيقاعـاً لغويـاً على سطح من النحاس.. فإن مثل هذا الإيقاع أصبح صداعاً لا يحتمل بالنسبة للأذن العربية المعاصرة.

لقد كان "قالت لي السمراء " في الأربعينات زهـرة مـن (أزهار الشر)، وإذا كانت باريس قد تسامحت مـع بـودلير

حين أهداها أزهاره السوداء، وسلّط الضوء علـى المغـائر السفلية، والدهاليز الفرويدية في داخل الإنسان، فإن دمشـق الأربعينات لم تكن مستعدة أن تتخلّى عن حبة واحـدة مـن مسبحتها لأحد..

لذلك جاءت ردود الفعل جارحة.. وذابحة، وكلام الشـيخ الطنطاوي، عن شعري، لم يكن نقداً بالمعنى الحضاري للنقد، وإنما كان صراخ رجل اشتعلت في ثيابه النار..

إن تحرك الدراويش، والطرابيش، والترابيش، ضدي كان تحركاً طبيعياً ومبرراً.. فساكنو تكايا الشعر العربي يعرفون أن أي صوت شعري جديد، سوف يقطع رزقهم ويحيلهم إلى المعاش.. لذلك فهم يتحصـنون وراء دروعهـم التقليديـة.. اللغة، والنحو، والصرف، والأمر بالمعروف، والنهـي عـن المنكر..

في الجانب الآخر من المسرح كان الجيل الدمشقي الجديد يبحث عن معنى لوجوده، وعن حلّ للتناقض الكبير القائم بين فكره وبين تفاصيل حياته اليومية.

كان يقرأ عن الحرية ولا يطبقها، ويسمع عن الوجودية، والسريالية، والدادائية، والتكعيبية، فيذهل ذهول القروي الذي ينزل إلى المدينة للمرة الأولى.

كانت أفكار الحرب العالمية الثانية، وفلسفاتها، ومذاهبها، وأيديولوجيتها.. تصدم جهازه العصبي، فيشعر أنه أخف وزناً، وأكثر قدرة على الدخول في حوار حضاري مع الالم.

وهكذا فتح (قالت لي السمراء) الضوء الأخضر.. أمام ألوف من الشبان والشابات، ليعبروا إلى الرصيف الثاني.. حيث كانت الحرية بانتظارهم.

كان في قصائد (قالت لي السمراء) لغةٌ تشبه لغتهم، وأشواق بحجم أشواقهم، وشعر بمساحة انفعالاتهم..

كان فيه حب، وشهوة، وعصيان، ووحشية، وجميع الأدوات التي يستعملها المساجين عادة لكسر أقفال زنزاناتهم..

إن تقييم (قالت لي السمراء) بعد ثلاثين عاماً من صدوره، قد يبدو لمن يجلسون الآن تحت شمس الحرية، تقييماً خرافياً ودراماتيكياً، ولكن الذين يردون الفن إلى جذوره الاجتماعية ، يعرفون أن هذا الكتاب كسر لدى نشره

كل الاحتكارات اللغوية، والبلاغية، والخطابية، والغائية، والأخلاقية، ومد لسانه كتلميذ شيطان لمجتمع الدراويش..

لعب (قالت لي السمراء) لعبة الحرية على قدر ما يستطيع أن يلعبها تلميذ على مقعد الدراسة، قد اتّسم بالتوتّر والعصبية، فلأن الحب في تلك الأيام، كان حباً مقهوراً، ومحظوراً، ومسروقاً من ثقوب الأبواب.

أما الجنس فكان مادة محرمة، لا تباع إلاّ في السوق السوداء.. وفي بيوت ممتهنات الهوى..

هكذا كنّا نعشق في ظلال الرعب، ونسعى إلى مواعيدنا في ظلال الرعب، ونفعل الحب في ظلال الرعب.. ونكتب في ظلال الرعب..

وحين يختلس الإنسان الحب اختلاساً، وتتحول المرأة إلى شريحة لحم نتعاطاها بالأظافر.. ينتفي الوجه الحضاري للحب، وتنتفي أية صيغة إنسانية للحوار.. ويصبح الغزل رقصةً همجيةً حول ذبيحةٍ ميّتة.

إن المرأة في أكثر الشعر العربي مادة ميتة. وأعضاؤها الجميلة مصفوفة على موائد الشعراء كأطباق المشهيات..

فهي طرفٌ كحيل، أو عجز ثقيل، أو خصر نحيل (يكاد من ثقل الأرداف ينبتر).

وأود أن أعترف، أنني في أعمالي الأولى ورثت هذه النظرة التجزيئية إلى الجنس الثاني.

وهذه النظرة التجزيئية إلى المرأة، لها جذورها القبلية، والتاريخية، والاجتماعية، والدينية. فالعرب بحكم ارتحالهم وغزواتهم وفتوحاتهم لم يستطيعوا أن يسكنوا إلى المرأة سكوناً تاماً يسمح لهم باستيطانها واكتشافها روحياً.

إن العقل القبلي، وتقاليد البداوة ومؤسساتها لم تكن تسمح - خارج نطاق الزواج، أو الغزو، أو اقتناء الجواري - بإقامة علاقة حميمة بين الرجل والمرأة.. وحتى في الحالات التي ذكرت، يطغى عنصر الامتلاك الجسدي - كما في حالة الجواري مثلاً - على أي عنصر ذهني أو نفسي أو تجريدي.

إن التجريد الذهني محصول حضاري، لا يصل إليه الإنسان إلا في ظل العلاقات المطمئنّة. وعلاقات العربي بالجنس الثاني كانت علاقات عصبية لاهثة ومستعجلة.

هذا هو اجتهادي، وبه أفسر نظرتي الجغرافية القاصـرة إلى جسد المرأة في (قالت لي السمراء) و (طفولة نهـد) و (أنت لي)، ودوراني المستمر حول حدودها الخارجية

إذن فقد كنتُ مخلصاً لميراث القبيلة، في أشعاري الأولى، ولم أتحرر من هذا الميراث إلا حين أتيح لي أن أجلس عـام ١٩٥٢ على مقعد من مقاعد الهايدبارك في لنـدن، وأقـيم حواراً مع الجنس الثـاني.. بعيـداً عـن صـداع الجـنس، وانفعالات القبيلة..

الثلاثمائة نسخة التي طُبعت من (قالت لـي السـمراء) طارت في شهر، وانتقلت قصائده كالحرائق الصـغيرة مـن يد.. إلى يد.. ومن حجرةٍ إلى حجرة.

قصيدة " نهداك " في هذه المجموعـة، كانـت الشـرارة الأولى التي أطلقتني، والمفتاح إلى شهرتي.

إذن فالطنطاوي لم يقتلني.. لأن جيـل الأربعينـات مـن الشباب والشابات كان يرفض موتي المجاني، ويـرفض أن أسقط تحت أقدام الإنكشاريين.. لأن سقوطي كان يعني سقوط أحلامهم.. واغتيال أول زهرة من زهرات الحرية تفتحت في مزهرياتهم..

وصمد (قالت لي السمراء) في وجه العاصفة، وتوالـد.. وتناسل.. حتى صارت النسخ الثلاثمئة المطبوعة منه عـام ١٩٤٤ غابةً لا نهائية الأوراق عام ١٩٧٢ .

إلى هنا أكون قد انتهيت من ديوان " قالت لي السمراء " مبدئياً، فإلى ديوانه الثاني " طفولـة نهـد.. " فـي الجـزء الثاني..!

انتهى الجزء الأول